

محمد أمين زين الدين

من أشعة القرآن

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان


مِنْ أَشِعَّةِ القُرآنِ

محمد أمين زين الدين

مِن أشعة القرآن

القسم الاول



دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الحلقة الأولى : طبعة أولى سنة ١٣٧٤ هـ
الحلقة الأولى : الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة طبعة سنة ١٣٩٥ هـ
الحلقة الثانية : الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
الطبعة الثالثة : في١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م



الحمـد لله كما ينبغي لـه ، والصـلاة والسلام على سيدنا محمد واله والطيبين من أصحابه كما يرضاها لهم .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب .

ربنـا وإننا مـا وعدتنـا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد .

القِسم الأوّل

الحلقة الأولى

النقد نزعة عريقة في الإنسان قبل أن تطبعه الإرادة فيصبح ملكة من الملكات ، وقبل أن ينظمه الفكر فيعود فناً من الفنون ، وقبل أن يفرض العقل له هذه الهيمنة المطلقة ، وهذا النفوذ الشامل على كل علم ، وعلى كل فن ، وعلى كل رأي وعلى كل سلوك ، وعلى كل نظام .

هو نزعة في الإنسان عميقة قبل أن يأخذ أي اتجاه ، وقبل أن يدخل عليه أي تطور ، فإنسان الغابة في مبتدإ عهده بالشعور الثابت ، والإنسان الطفل في أولى درجاته من التمييز ، يعرفان النقد ، وقد يبدعان فيه .

أعني بالشعور الثابت في قولي المتقدم المرحلة التي استطاع إنسان الغابة أن يركز ادراكه للأشياء التي يراها ، وأن يميز بين مختلفاتها .

وإذن فجرثومة النقد في الإنسان فطرية محضة ، وليس يهمني أن أعرف مرده إلى أي الركائز في نفس الإنسان ، وصلته بأي النواحي الأصيلة من نواحيه ، وما

يدريني لعل ركيزته الأولى أعرق من فطرة الإنسان فلقد وجدنا الحيوان يمتحن الكلأ ثم يأكله أو يعافه ، ورأينا الطير يختبر الموضع ثم يألفه أو ينصرف عنه . . .

وتدرج الإنسان بالنقد لما استبان أثره في تصحيح النتائج ، وسداده في توجيه الخطى ، وسار العقل في طريقه ينقد ويضع الموازين للنقد ، ويزن ويرسم الخطوط للموازنة ، ويستكنه ويعد الوسائل للاستكناه .

وانجلى الصبح ! فإذا النقد فن له أصوله ومناهجه ، وله خصائصه ونتائجه ، وإذا بالحق ينقد ليستوضح أنه الحق ، والباطل ينقد ليعلم انه الباطل وإذا بالعلم ينقد ليثبت أنه العلم ، والجهل ينقد ليدل على أنه الجهل ، وإذا بالعلوم والفنون ، والآراء والمذاهب ، والأعمال والمظاهر ، وأديان السماء وفلسفات الأرض كلها خاضعة لسلطان النقد ، ولا ترى في حكمه حيفاً ، ولا في الانقياد له ضعة . . .

النقد للغايات الصغيرة :

وفي مجال الزمن المحدود ، وهذا الكون المشحون بالمباينات ، يسير على جانب من هذا الموكب المرتقى موكب آخر منحدر .

موكب للنقد أيضاً ، غير أنه من طراز آخر .

النقد للعاطفة ، والنقد للطعن ، والنقد للغايات الصغيرة الحقيرة ، ومتى كان الحكم على الشيء للعاطفة المجردة كان تفسير النقد مدحاً بلا قياس مع الحب ، ووقيعة بلا حساب مع البغض ، يسف الهدف فتسف بتبعه الوسيلة ، ويتضع الحد فيتضع من أجله المحدود ، والمدح بلا قياس كالطعن بلا موجب ، كلاهما تحدّ لكرامة الحق ، والتوآء عن طبيعة العدل ، وللرأي حرمة ليس من شريعة النقد أن تنتهك ، وللأنصاف ذمة ليس من حرية الناقد أن تخفر ، وللفن كرامة ليس في حدود الغابات الشريفة أن تداس .

فليس من النقد أن يثيرك عداء لتنتقم ، أو ينهضك ولاء لتحتكم وليس من النقد أن تدعى ثم لا تثبت ، أو ترى الحق ثم لا تنصف ، وليس من النقد أن تحكم قبل أن تستوعب وأن تقول قبل أن تتدبر .

***

كثيرون أولئك الذين ينقدون للنقد لا للتوّجيه ، ويستضعفون للتشفي ، لا لبيان الحق ، وكثيرون أولئك الذين لا يضيقون أن يجحدوا حتى الضروري من الأمور

أو يدّعوا حتى المحال من الدعاوى لا يضيقون عن شيء من ذلك أبداً إذا اقتضته أهدافهم . . .

ولعل الأديان أعظم الأشياء محنة بهذا الصنف من الناقدين ولعل الإسلام أبهظ الأديان عبءاً منهم ، وأوفرها قسطاً من عنتهم . . .

أحقاد تضطرم ، وأهواء تبتدع ، وألسنة تفتري ، وأقلام تستطيل ، ولقد كان القرآن في جميع الأدوار لهم بالمرصاد . . .

نعم ، كان القرآن الكريم ، وكانت مناهج الإسلام الصحيحة وإرشاداته القويمة لهؤلاء بالمرصاد ، فأنظمة الإسلام تدمغهم بالواقع ، وبلاغ القرآن يقرعهم بالحجة ، وإرشاداته تدلهم على منافذ الضوء ، وتظهر لهم وجوه الحكمة .

ثم دار الفلك ألفاً وأربعمائة دورة على وجه التقريب وحلق الفكر بمن حلق ، وتقدمت الحضارة بمن تقدم ، وتطلع القرآن ، وتطلع الزمن ، وتطلع التأريخ ، وإذا بالأحقاد تمحق جيلاً لتمتطي جيلاً ، وإذا بالمهازل تنزع صورة لتلبس صورة وإذا بإنسان القرن العشرين لا يزال هو إنسان القرن السادس لم يكشف عنه النور

غشاوة ، ولم ترفع منه الحضارة إسفافاً ، ولم يغير له العلم نظرة .

فهل في وسعك أن تعجب ؟ . وهل بإمكانك أن تعلل ؟ .

لقد كفرت أوربا بالانجيل وبرب الانجيل منذ أمد بعيد ولكنها لم تنس يوماً ما حقدها على القرآن وعلى نبي القرآن . . . ! !

لماذا ؟ . . .

لا أدري ، . . ولعل القارىء أعرف بمسارب السياسة مني فلأترك له الحكم والتعليل .

أما بعد فهذه أشعة من القرآن ومن العقل المستنير أوجهها إلى شيء من هذه الطعون التي يلهج بها الناقدون ، وأنا أعلم جيداً أنها لا تصلح علاجاً لحقد الحاقدين ولكنها على أي حال جواب لسؤالك أيها الأخ الكريم .

وإن ظروفاً هيأت لي أن ألج هذه البحوث ، وأن أخلص إلى هذه النتائج لهي جديرة مني بالثناء ، وقد كان سؤالك مستهل هذا البر ، ومبعث هذا الخير ، ولله وحده الفضل والحمد على جميع ذلك .

ولك التحيات الـطيبة في مـطلع الحديث وفي ختامه .

من المخلص

محمد أمين زين الدين

٢٥ رجب ١٣٧٤ هـ

سؤال :

خمس من النساء فأكثر، ويقول التأريخ أن محمداً جمع بين تسع منهن على أقل رواية يذكرها المؤرخون ، فهل نستطيع أن نوفق بين ذلك . . . ؟ ؟

جواب :

تمحلات يرجف بها غربيون :

عهدي بهذا النوع من الأسئلة إنها تمحلات يرجف بها كتاب غربيون أو مستغربون .

غربيون من هناك . . .

أو مستغربون من هنا . . .

وكلهم بعيدون عن الإسلام وعن نبي الإسلام (ص) ولكنهم يحملون لهذا الدين ، ولنبيه ولكتابه ضغائن وسخائم ، كانت من بعض آثارها حروب طاحنة استمرت قروناً وآماداً ، وكانت من بعض مظاهرها كتب ماجنة تناولت كل مقطع من دعوة الإسلام بالتكذيب وكل منحى من سيرة نبي الإسلام بالطعن . . .

لم يقترف محمد (ص) في حق هؤلاء ، ولا في حق نبيهم ولا في حق كتابهم ما يثير هذا الحقد ، وما يبعث هذه الشحناء ، فمحمد (ص) هو الذي نزه السيد المسيح عن النسب الداعرة التي تقولها الأفكون ، ورفع الصديقة أمه عن الحطة التي وصمها بها الكاذبون .

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله [١]»وهذا هو الشيء الذي نقمه الكتابيون على القرآن وعلى رسوله « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون [٢] » .

وليت الناقدين من هؤلاء التزموا الصدق والنصف في نقدهم وفي جدلهم ، إذن لشكر القرآن ورب القرآن لهم جميل الصنع . ولنعتهم بإبر النعوت ، وقد علم كل مطلع في دين الإسلام أنه أحفل الأديان كلها بالنقد متى كان رائده الصدق ودعامته الانصاف وغايته الحق ، وقد علم كل مطلع في دين الإسلام انه الدين الذي أعطى العقل حريته الكاملة ، وفتح له أبواب البحث والموازنة حتى في أرسى قواعده وأخص تعاليمه ، فلم يقبل الإيمان بتوحيد الله ، ولا بصدق محمد (ص) حين يعتمد على دعامة غير ثابتة ، ويقوم على أساس غير متين .

أجل ، حتى توحيد الله ـ وهو الضرورة الأولى في دين الإسلام ـ وحتى تصديق محمد (ص) وهو التفسير الصريح لمعنى الإسلام ـ حتى هذين الأساسين العظيمين لا يقبل الإسلام إيماناً بهما أو بأحدهما حتى يرتبط ببرهان جلي أو بفطرة قويمة . « قل إنما أعظكم بواحدة أن

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) المائدة : ٥٨ .

تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . [١] » لقد علم كل مطلع في دين الإسلام ان ذلك من خصائصه البينة ، وأضعف المبادىء ما لا يثبت للتحليل العلمي والفحص النزيه .

أقول : ليت الناقدين التزموا الصدق والنصف فيما يقولون وفيما ينسبون ، إذن لظهر لهم الحق عند أول تجربة ، والذهب الابريز إنما يستبان جوهره إذا وضع على المحك ، إلا أن الثائر الذي يدفعه الحنق إلى أن يتحامل ويحفزه الغيظ على أن يلاحظ ، ليس يبالي أن يقول كذباً أو يدعى محالا . . .

لأية ضرورة يلتزم بالصدق إذا كان الصدق لا يشفي غليلاً ولا يجدي فتيلاً ، وفي الافك متسع للتهم ، ومنتدح للطعن ، وقول السوء ؟ . . .

إذن فليقولوا ما يمليه الحقد . وليكتبوا ما توحيه الأضغان . وليكن الإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام براء من القول الذي يتقولون ، ومن الأفك الذي ينسبون .

عليهم أن يقولوا وأن ينسبوا ، أما صلة القول

---

(١) سبأ : ٤٦ .

بالواقع ، وقيمة النسبة عند التمحيص فذلك أمر لا يكترث له هذا الطراز من الناقدين . . .

أليس ذلك مما يخفي على البعداء الذين لا يعرفون شيئاً عن هذا الدين ، ولا عن تعاليمه ولا عن تأريخه ؟ ؟ . . .

أليس في هذا الخبط والنبز إشباع للحقد الكامن ، وارضاء للضعن الثائر ؟ ؟ .

ثم أليس فيه صرف لوجوه العامة من أتباعهم - على الأقل - عن النظر في الإسلام ، وفي حقائقه ودلائله . ؟ ؟ .

كفى بذلك مبرراً ، وكفى به دليلاً على صحة كل دعوى وإثبات كل نبز . . .

وإلا فما معنى قول بعضهم : ان محمداً لص نياق ، متهالك على اللهو ! ! ، وإنه رأس عصابة من قطاع الطريق ! ! ، وإنه كردينال حُرِمَ من الوصول إلى كرسي البابوية ، فحنق على زملائه لإنهم لم ينتخبوه لهذا المنصب الديني الكبير ، فأدعى النبوة ، واخترع له ديناً ، ووضع له كتاباً . . . لا لحق له في شيء من ذلك ، ولا لوحي ينزل عليه من ربه ، بل ليرضي شهوته ، ولينتقم من زملائه ! ! ؟ ؟ .

ما معنى ذلك ؟ ؟ .

وما معنى قول بعضهم : إن المسلمين يعبدون صنماً على صورة محمد ، أو أنهم يؤلهون ثالوثاً محمد أحد أقانيمه ؟ ؟ ! ! .

المسلمون يعبدون صنماً ونبيهم هو الذي حطم الأصنام ، وهم يؤلهون ثالوثاً ، ودينهم هو الذي نبذ الشرك وحارب الثالوث : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد [1] » . وإذا كان التثليث والثالوث هنا جريمة يرتكبها المسلمون كما يقول هذا القائل فلماذا يكونان عقيدة صحيحة إذا اعتقدها سواهم ؟ ! .

أي إفك هذا الذي يتقولون ؟ وأي عاقل من الناس يحمله الشنآن على أن يفتري هذا الافك ، وأن يسخف هذه السخافة ؟ .

وهب إن دين الإنسان لا يردعه عن ذلك متى أيقن ان الحديث إنما سيق لحسابه ، فهل الشرف الذي به يستمسك المرء ، والوجدان الذي به يعتصم وإليه يحتكم مما يسمحان به ؟ ؟ .

---

(١) المائدة : ٧٣ .

ومحمد ليس من الرجال المغمورين ، وتأريخ محمد ليس من التأريخ المجهول ، ودعوته ليست من الدعاوى المقبورة ، ليخبر المخبر عن غائب فينقص في وصفه أو يزيد .

كلا . . . كلا ، لعل محمداً (ص) أنبه رجل تضمنه التأريخ ولعل سيرته أشهر سيرة أملتها الحياة ، ولعل دعوته أبين دعوة وعتها الإنسانية ، وأي قبح ، وأي حطة بهؤلاء حين يرجع الباحث المنصف إلى سيرة محمد (ص) وإلى أقوال محمد ، وإلى كتاب محمد فلا يرى ظلاً لهذا السخف الذي يفترون . . . ؟ ؟ .

على أنا لا نستغرب أن يقع مثل هذا من أمثالهم ، فالذي يجيز أن يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً في عقيدته ، لا يستكثر عليه أن يقول أمثال هـذا عند شنآنه .

والمستغربون تبع :

عهدي بهذا النوع من الاسئلة أنها تمحلات يولع بها كتّاب غربيون ، يطفئون بها لهيباً ، ويبلغون بها أماني ، ويتبعهم عليها مقلدون من الشرق ، ممن لا يتنسمون الهواء إلا دبوراً ، ولا تعجبهم الشمس

إلا عند الغروب .

هؤلاء . وهؤلاء ، هم الذين أسسوا وشادوا من الـوهم ، وعلى الـوهم صروحـاً وقبابـاً ، ثم صفقوا وضحكوا لما أسسوا ولما شادوا ، كالمبرسم الذي يتخيل أن السماء بآفاقها ملك يمينه ، وأن الأرض بمقاليدها طوع حكمه ، ثم يرفع رأسه مزهواً مختالاً ، لأن بيده ملكوت السماوات والأرض . . .

ومما يدهش أن بعض اتباع هؤلاء الكتبة ممن يهتفون باسم محمد مع الهاتفين ، تقليداً للأسلاف ، أو انجرافاً مع التيار ! !

نعم ممن يهتفون باسم هذا العظيم حين يهتف الناس بأسماء أنبيائهم وممن يدرجهم الناس ، ويدرجون نفوسهم أيضاً في عداد المسلمين حين ينتسب المتدينون إلى مللهم . . . ! ! يقولون هذا حين يقول الناس هنا في الشرق نحن مسلمون ، ويقولون ذلك حين يقول الناس هناك في الغرب : نحن مكذبون . !

أتدري ما صلتهم بالإسلام ، وما مقدار تمسكهم بالقرآن ؟ ؟ .

تمسكهم بالقرآن أن يتبسموا لاياتـه إذا تلاهـا التالي ، وأن يترنحوا لنغماته إذا وقعها المنشد ، كما يتبسم

الأديب لبيت الشعر المحكم ، وكما يطرب العاشق لتوقيع اللحن المثير . . .

وصلتهم بالإسلام أن يقولوا أن شريعته منزلة من الله ، وإن إحكامه مأخوذة من الوحي ، ليس في ذلك ريب ، إلا أن هذه الشريعة ، وهذه الإحكام إنما تلائم عقلية المجتمع في القرن السادس ، وما يقاربه من الأزمان ، أما اليوم . . . أما في القرن العشرين ، فيجب تأويل كل نص من نصوص هذا الدين ويلزم تحوير كل حكم من أحكامه ، يجب ذل ليوائم القوانين الحديثة في هذا العصر ، ولينسجم مع العقلية الراقية في هذا الجيل . . .

على الإسلام أن يغير زيه ، وأن يخفف من حدته ، وأن يعدل من حدوده حتى يتحد مع قانون فرنسا في باريس ، أو انكلترا في لندن ، أو الولايات المتحدة في الدنيا الجديدة ، أو القوانين الوضعية في البلاد الأخرى . وميزة الإسلام العظمى عند هؤلاء أنه لا يأبى عن هذا الانسجام ـ إذا اقتضته المصلحة ـ لأنه مرن يقبل التعديل والتأويل . . .

بلى ، إنهم يبيحون للإسلام أن يحتفظ برسم القرآن ، وبتلاوته أيضاً ليكون شعاراً لوحدة الدين ، وإن

تغيرت منه الصورة ومسخت منه الحقائق ، ويجيزون له أن يحتفظ باسم محمد أيضاً كما تحتفظ المدائن الحديثة بالآثار القديمة ، هذه صلة هؤلاء الكتاب وقد تباع الشرقيين بالإسلام وبالقرآن ، وبمحمد نبي الإسلام والقرآن ، فهل تعجب بعد ذلك لهم أن يقولوا ما يقولون ؟ .

أما ما يقوله كل كاتب غربي عندهم فهو الحق لا مرية فيه لأن الكاتب الغربي لا يكتب إلا حقاً ، ولا يملي إلا يقيناً ، لا يكتب إلا حقاً وإن رأينا كذبه بأبصارنا ، ولا يملي إلا يقيناً ، وإن قال لنا ان كوكب الشمس قد أمحى نوره وتناثرت أجزاؤه وخمدت جذوته منذ آلاف من السنين .

عهدي بهذا النمط من الأسئلة انها تمحلات يتكلفها ذلك الفريق من الكتاب ، وهذا القطيع من المقلدين ، وهي لذلك لا تستوجب العناية في قليل ولا كثير ، لأن منافرة الاحقاد ليست من ميادين الإسلام ، وقول الهزل ليس من مجالات الدعوة إليه .

أما والأمر قد اتخذ شكلاً آخر يستحق الاهتمام ، أما وقد تحول التجديف والتخريف استفهاماً نقياً يلقيه المخلصون من أبناء الإسلام واتباع القرآن ، استفهاماً نقياً

ينفضون به ما علق بذيولهم من غبار ، ويجلون ما تركز في إذهانهم من يقين . . .

أما وقد اتخذ الأمر هذا الشكل فأن على دعاة الإسلام وحملة القرآن أن يولوه شيئاً من عنايتهم ، وأن يدرجوه في قائمة أعمالهم . . .

وهو كذلك يستحق الأكبار والتنـويه ، فهؤلاء المسلمون المخلصون يوقنون أن محمداً (ص) في نفسه وفي تأريخه وفي دنيه وفي كتابه أسمى من أن تصل إليه يد عابثة ، أو تدانيه شخصية مشاركة ، وهم لذلك يعجبون أن يتطاول إليه وهم الواهمين ، وحقد الحاقدين .

محمد بشر إلا أن بشريته أسمى وأوسع من حدود البشرية الضيقة المألوفة ، فكيف يسمو نحوه خيال بوهم أو قلب بحقد ؟ ! .

هكذا يوقن هؤلاء المخلصون ، وهكذا يودون أن يكون ، وقيم الأعمال والأقوال إنما تتفاوت باختلاف الغايات التي يقصدها العاملون والقائلون .

إذن فمن الحتم أن يتعرض الباحثون المسلمون لهذا النوع من الشبهات ، وأن يعرّفوا الناس موضعها من الصحة ، وقيمتها في سوق النقد . . .

والسؤال المتقدم في صدر الموضوع حلقة واحدة من سلسلة طويلة متداخلة ، وأرى من الحتم أن استعرض حلقاتها بإيجاز ، وإن لم يتعرض لها صديقي في السؤال . . .

حلقة من سلسلة :

يقول الناقدون الحاقدون حين يتحدثون عن مركز المرأة في دين الإسلام ، يقولون ليقتطعوا شطر البشرية الأكبر عن قافلة هذا الدين ، وليثيروا عليه أنصار المرأة من الرجال ويستميلو الفريق المحايد منهم .

يقولون : الاسلام يهبط بالمرأة عن منزلتها الطبيعية في الحياة ، ويهوي بها عن مستواها الثابت من الانسانية ، فالمرأة في هذا الدين متعة وملهاة للرجل لا أكثر ، وهي عامل صغير في نطاق الأسرة لا أرفع ، ثم هو لا يساويها بالرجل في الحقوق ، ولا يقارنها معه في المنزلة ، فلا تستحق الأنثى إلا نصف نصيب الرجل في الميراث ، وشهادتها تعدل نصف شهادة الرجل عند القضاء ، والرجال قوامون على النساء في الأسرة ، فالمرأة في رأيه نصف إنسان في ميزانية الاجتماع ، وهي أحط من ذلك كثيراً في ميزانية الأسرة .

ألم يجعلها ربع إنسان في نظام تعدد الأزواج ، وفي تشريع حق القسم ؟

ألم يحرمها من حق الاختيار في الطلاق ، ومن حق الرجعة في الطلاق الرجعي ؟ ، ولئن اعتبر رضاها في صحة النكاح ، فإنه قيدها بإذن الولي ، والولي رجل من الرجال .

هذه بعض قيود المرأة التي وضعها الإسلام ، ويظهر أثرها جلياً في الحجاب الذي فرضه عليها دون الرجال ، وفي منعها عن الخروج إلا لحاجة .

والاسلام إذ يهوى بالمرأة إلى هذه الضعة إنما يهبط بالمجتمع كله إلى مهوى سحيق ، فالمرأة هي مربية الجيل ، ومنشئة أخلاقه ، وملقنة آدابه ، والتربية والبيئة والوراثة أسس الأخلاق الأولى ، وكلها مرتبطة بالمرأة ارتباطاً لا يجحد .

والمرأة شطر البشرية الأوفر في العدد ، وشقها الأهم في حفظ النوع وقسمها الأقوى أثراً في تجميل الحياة ، فيجب أن تساوي الرجل من كل وجهة ، وأن تشاركه في كل مزية ، وكيف يتم التكافل الاجتماعي بين الزوجين إذا هما لم يتساويا في تحمل المسؤوليات ، ولم يتساندا في كل ميدان من ميادين الحياة ؟ وكيف يبلغان

إلى هذه الغاية إذا هما لم يستعدا للحياة باستعداد واحد ، ولم يسيرا فيها بطريق واحد إلى هدف واحد . . . ؟ .

هكذا! يقولون أولاً ثم يردفون : إذا كانت العلاقة الزوجية تقتضي زوجاً واحداً لا أكثر ، فكيف لا تقتضي زوجة واحدة لا أكثر . ؟ ! وما هو الفارق بين الجانبين ؟ .

وإذا صح لدين الإسلام أن يخالف حكم المنطق في ذلك ، فيبيح للرجل الواحد أن يتزوج أربعاً من النساء ، فكيف يسوغ لمحمد نفسه أن يخالف حكم دينه ، فيجمع بين تسع منهن على أقل رواية يذكرها المؤرخون . . . ؟ .

وأخيراً ، وفي نهاية هذه السلسلة يعرضون لقصة زينب بنت جحش ، وحديث تزوج النبي (ص) إياها ، ويقولون في أعقاب كل واحدة من هذه الشبهات ما يشتهون . . .

أما الفريق الذين ينتحلون الإسلام من هؤلاء الكتاب فغاية ما ينتصرون به للإسلام انهم يقولون : إنه لشوط بعيد ، وإنها الخطوة جبارة : أن يمهد الإسلام لاستقلال المرأة هذا التمهيد ، وأن يعد لتحريرها هذا الاعداد . . . شوط بعيد أن يعترف بأن المرأة نصف إنسان ، وخطوة جبارة أن يقرر لها بعض الحقوق ،

ويثبت لها بعض الحرية ، فيقربها بذلك من الإنسان الكامل ، ويقضي على التقاليد الجائرة التي لا تعترف للمرأة بحق ، ولا تثبت لها حرية . . . شوط بعيد ويد مشكورة أن يمهد الإسلام هذا التمهيد ، ثم يفسح الطريق بعده للقوانين الحديثة تكمل استقلال المرأة ، وتعترف بجميع حقوقها وحرياتها ! ! .

أما أن نحتفظ بنصوص الإسلام على ما أنزلت في القرن السادس ، وبتلك الحقوق الناقصة والحرية المبتورة للمرأة ، فهذا هو الجمود الراكد ، والرجعية البائدة ، وطبائع الأمور وملابساتها لا تسمح لنا أن نحتفظ بها في القرن العشرين ! ! .

هذا ما يركّز عليه هؤلاء صلتهم بالإسلام ، اعتراف يشبه الأنكار ، وافتراء يتضمن المداهنة ، أما موقفهم من الحديث عن نسآء النبي (ص) فهو الصمت . . .

الصمت العي . . . أو الاعتراف المخزي .

المرأة عند الأمم . في أوربا .

بوسعي أن استعرض حقوق المرأة وأحكامها في الأديان الأولى ، وتأريخها القديم والحديث في أوربا . . .

في أوربا هذه التي تهتف بحياة المرأة، وتعقد المؤتمرات والمنتديات من أجل حريتها . . . نعم ، وفي تأريخها الثابت الذي لا ينكر .

بوسعي أن استعرض هذا ، واستعرض تأريخ المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وفي بلاد فارس قبل الفتح ، ثم أقارن بين هذا كله وبين الإسلام ، لتعلم أي هذه الشرائع أحفظ الحق المرأة ، وأيها أكثر موافقة لطبيعتها في الحياة ، ومنزلتها في التكوين .

بوسعي أن أقول ، ثم أقيم الحجة على ما أدعي : ان المرأة في أوربا لم تطلب المساواة بالرجل إلا بعد أن القى الرجل إعالتها عن ظهره فاضطرت بدورها إلى العمل ، وبعد أن قامرها في السعي وفي المسعى فاضطرت أن تبذل من جهدها ، ومن عرضها أيضاً ، لتصل إلى الغاية . . إلى القوت . ! !

نعم ، وبعد أن مرت بها قرون وقرون ، وهي تماثل الرجل أو تزيد عليه في الجهد ، ولا تساويه في الأجر .

لم تلتزم أوربا بالدين في يوم ما ، ليصعب عليها أن تتخلص من تبعاته ، أقول : لم تلتزم أوربا بالدين التزاماً حقيقياً ، وأن خضعت له خضوعاً شكلياً ، لا يستند إلى

اقتناع ، ولا ينبع عن إخلاص ، فكان من المتوقع لها ، ومن اليسير عليها أن تلقي أي تبعة حين لا تلجؤها إليها فاقة ، ولا تدفعها مصلحة ، وإن كانت التبعة عظيمة الوقع في الدين ، بالغة الأثر في الأخلاق .

وقد كان التزام الرجل الأوربي بكفالة المرأة في عهود الإقطاع ، وفي البيئات الزراعية ضرورة تحتمها عليه طبيعة الأشياء ، فالاقطاعي مسدود العوز بما تدر له الأرض من نتاج ، وبما يقاسيه الزراع الكادحون في تحقيق أمانيه من عناء ، وما يتحمله الارقاء لضمان راحته من متاعب ، فهو مكفي الحاجة موفور الراحة .

ومن اللوازم الطبيعية للبشر حين يستريح ويكتفي أن ينصرف ـ بكله ـ إلى حاجاته الأخرى في الحياة ، حاجة الجنس وحاجة الاجتماع ، وحاجة النسل ،و . ؛ و . . . ومن اللوازم كذلك أن يغرق في هذه النواحي حين ينفرد لها ، فالغريزة تدعو ، والقدرة تحفز ، وليس في الوجود كله ما يمنع ، أو ما يقوى على المنع .

ونتيجة لذلك فلا بد أن تكون المرأة أول شيء يفكر فيه . ولا بد أن يكفلها لتنفرد لحاجاته .

ولا بد أن يدللها ويسرف في تدليلها ليستغرق في لذاته . فكان جميع ذلك . ولا محيد من أن يكون .

والزارع بطبيعة عمله مفتقر إلى المساعد . وبطبيعة نوعه مفتقر إلى الخليط . وبطبيعة رجولته مفتقر إلى الأنثى . والمرأة ملتقى هذه النزعات .

وإذن فلم يكن محيص للرجل الأوربي من كفالة المرأة في تلك العهود . وكان يسيراً عليه أن يلقي عنه هذا العبء متى خف عنه ضغط الحاجة . لأن التزامه به اضطراري محض ، ولم ينشأ عن كرم خلق أو عاطفة دين .

وأثبتت الملابسات صدق هذا النبأ ، فما ابتدأ دور الصناعة ، وفتحت أبواب المعامل حتى ألقي الحمل ، وانحلت العقدة ، وقضي الأمر . فقد استبدل الريفي بالمدينة عن القرية ، واستغنى بالمصنع عن المزرعة . واكتفى بالمصرفات المحرمة عن الزواج الشرعي . فأية فاقة له بعد هذا إلى الزوجة ؟ . وأية ضرورة تحتم عليه أن يكفلها .

ألقى الرجل الأوربي ثقل المرأة عن ظهره لما قام كل شخص بعمله ، فاستغنى هو عن مساعدة المرأة . وحين صرف طاقته الجنسية من طريقها المحرم ، فاستغنى عن اتخاذ الزوجة . فكان من النتائج المحتومة لذلك أن تطرق المرأة باب المعمل لأنها تحاول إن تعيش . وكان من النتائج

رسل الله يجب تصديقه واتباعه، أنكرأشدالانكار أن يكون رباً تفرض عبادته والتزلف إليه ، « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار [١] » . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام [٢] » .

تعالى الله أن يكون له شريك في الألوهية والربوبية ، وإن يكن الشريك ولداً ، وعظم أن يتخذ صاحبة أو ولداً ، وان تكن الصاحبة مريم في الطهر والولد عيسى في الكرامة ، وتسامى في وجوده وفي غناه عن أن يحتوي عليه كائن أو يحيط به مكان ، وتنزه عيسى ودين عيسى وكتاب عيسى عن مثل هذا الالتواء في العقيدة ، وهذا الاسفاف في المنطق ، وسيجتمع عيسى بأهل هذه العقيدة . وسيعلن براءته منهم ومن عقيدتهم : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك

---

(١) المائدة : ٧٢ . (٢) المائدة : ٧٥ .

أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : « أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شهيد [1] » .

هذا ما يعلنه القرآن في عدد جم من آياته ، وهذه هي دعوة التوحيد الخالص التي تتفق مع الفطرة في صفائها ومع البرهان في قوته ، في ثباته وغزارته نعم وهذا بعينه هو ما وجده المتحاملون من أتباع المسيح على الإسلام وعلى نبيه ، وأثار حفائظهم على الدعوة والداعي ، وقديماً أنكر سلفهم على الرسول أن يسجل عليهم هذا الشطط وأن يردعهم عن هذا التلاعب ، أنكروا عليه أن يقول : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون [2] » . فأقبلوا إليه من نجران ليخاصموه وليحاجوه فناضلهم بالبرهان وبالقرآن . . . ثم أفحمهم بالمباهلة .

نعم هذه دعوة الله التي وجهها القرآن صريحة ليس فيها غموض ولا تعقيد : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً

---

(١) المائدة : ١١٧ . (٢) آل عمران : ٥٩ .

وكتاب محمد (ص) هو الذي صان للمسيح منزلته في صفوف الأنبياء ، وفي عداد الزعماء منهم ، وحفظ لإنجيل المسيح ولدينه موضعهما بين الكتب والأديان وبين الصحيح منها على الخصوص .

« إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه [1] » . « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بأذني وتبرىء الأكمة والأبرص باذني وإذ تخرج الموتى باذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم أن هذا إلا سحر مبين [2] » .

أجل أن قرآن محمد (ص) هو الذي احتفظ لعيسى ولدينه بمنزلتهما وكرامتهما بعد أن هوت بهما دعاوى وأغاليط من أعداء عيسى ومن أتباعه على السواء ، وليس كفاء ذلك أن يضمر له المسيحيون حقداً لا ينسى ، وضغناً لا يزول ، ليس هذا كفاء ذلك في شريعة

---

(١) النساء : ١٧١ . (٢) المائدة : ١١٠ .

الأنصاف .

على أن محمداً (ص) لم يتجه هذا الإتجاه في تقديس الأنبياء لينال جزاءً من أتباع ، ولا محبة من أولياء . . .

يعظم محمد (ص) جميع الأنبياء لأن تعظيمهم جزء من دنيه لا ينفصل ، ويعترف بنبواتهم لأن الاعتراف بها شطر من عقيدته لا يتجزأ ، « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون [١] » .

بلى ، قال محمد ، وقال كتاب محمد (ص) : عيسى روح من الله وكلمة من كلماته ، ألقاها إلى مريم ،وأنكـر اأبلغ الأنكار أن يكون هو أو غيره أبناً لله ، أو أقنوماً يأتلف معه ، أو موضعاً يحل فيه « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون [٢] » .

وقال محمد وقال كتاب محمد : عيسى رسول من

---

(١) البقرة : ١٣٦ . (٢) المؤمنون : ٩١ .

المحتومة لذلك أن تشارك الرجل في نمط الثقافة لأنها تشاركه في نوع العمل ، وأن تساويه أو تزيد عليه في الجهد لأنها تطلب أن تساويه في الأجر .

وكبر على الرجل أن تنافسه المرأة ، وأن تصل إلى مثل غايته ، وأن بذلت أكبر من جهده ، كبر عليه أن تنافسه المرأة وهو الذي بيده مفاتيح المعمل ، وبحكمه تصريف موارد الرزق ، ثم هو الذي بإرادته تسن القوانين ، وبأمره تطبق الأنظمة .

كبر عليه ذلك ، فقيّد المرأة في العمل ، وخادعها في المسعى ، ثم ظلمها في الأجر إذن فماذا تنتظر المرأة المسكينة بعد ؟ وما يجب عليها أن تعمل ؟ . لم يبق لها إلا أنِ تدخل مجالس التشريع لتطالب ، ودوائر التنفيذ لتنتصف ، وما يمنعها أن تدخل مجالس التشريع ودوائر التنفيذ ، وهي تضاهىء الرجل في نوع الثقافة ، وتماثله في الاستعداد ، وهي كذلك تساويه في العمل والإنتاج ؟ ، والتشريعات التي يسنها الرجال لم تصن لها حقاً . . . ولم تحفظ لها كرامة .

عليها أن تدخل مجلس التشريع ، وأن تطالب تمهيداً لذلك بحق الانتخاب ، وإلا خسرت كل شيء ولم تحصل في مقابل خسارتها على شيء ، كل هذه نتائج

محتومة متتابعة لا مفر من وقوعها ، ولا مندوحة عن المصير إليها .

وقد اعترف الوزير الفرنسي (تيرجو) سنة ١٧٧٦ ، بأن المرأة (في ذلك العهد) لضعفها واستكانتها (أصبحت كثيرة المطالب قليلة الموارد ، وأنها بما فرض عليها من تعاسة وذلة قد جنحت إلى الغواية والفجور) . أنظر صحيفة ٤٠ من كتاب المرأة في عصر الديمقراطية لاسماعيل مظهر رئيس تحرير المقتطف .

المرأة في الإسلام :

بوسعي أن أذكر جميع هذا مفصلاً ، ثم أقول : أما دين الإسلام فقد فرض على الرجل أن يقوم باعاشة المرأة كفاء ما تبذل في إدارة منزله من جهد ، وما تلقي في تنشئة أطفاله من عنت ، وما تهيء لضمان راحته من اعداد .

أما العمل واستحقاقها الأجرة تامة على ما تعمل ، والتملك واستقلالها الكامل بالتصرف فيما تملك ، أما الكسب بأنواعه التي أحلت للرجال فالنساء مساوية لهم في ذلك ، أقرأت قوله تعالى : (للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من

فضله إن الله كان بكل شيء عليماً)[1] .

فالمرأة في ظل الإسلام مضمونة الحاجة والكرامة حين تختص بإدارة المنزل ، موفورة العزة مصونة الحقوق حين تلتجىء إلى السعي ، فليس بها حاجة لأن تطالب بحقوقها ، في المجتمع الإسلامي ، وليس بها ضرورة لأن تقيم المؤتمرات ، وتعلن المظاهرات .

أستطيع أن أفصل هذا بإسهاب ، وأن أقيم الحجة على كل فقرة منه ، وعلى كل مدعى فيه ، إلا أنه بحث طويل يضطرني إلى وضع كتاب ، وليس لي من الوقت ما يسمح بذلك .

أقول : إن شبهة التجني على حقوق المرأة وعلى حرياتها إنما نشأت في المجتمع الغربي لما ألجأها إلى العمل ، ثم لم يصن لها الحقوق ، ولم يضمن لها الكرامة ، ولما استغل الرجل ضعفها فاستبد بها بقوته ، وإخضعها لتحكماته ، أما أن يوجه الغربيون هذه التهمة إلى العدل الإسلامي ، فهذا ما يدعو إلى العجب . . . ، إلى العجب الطويل ، وفي المثل العربي : رمتني بدائها وانسلت .

---

(١) النساء : ٣٢ .

في المجتمع الغربي الذي يعد الاقتصاد هو العامل الوحيد في تكييف المجتمعات وخلق التقاليد ، وبناء التأريخ ، لا في الإسلام الذي يرى أن الاقتصاد عامل في الحياة ، وعامل مهمٍ فيها ، إلا أنه ليس بالوحيد ، وأن للروح أفقاً مستقلاً تتسامى فيه المثل ويرتفع فيه الإنسان ، وان للعقيدة سيطرة كاملة على تنظيم كل ما في الحياة من عمل ، وعلى تهذيب كل ما في الحياة من عامل ، في ذلك المجتمع لا في هذا نشأ التعدي على حقوق المرأة ، وهناك لا هنا حدث الضغط على حرياتها . في جو آخر لم يسطع فيه عطر الإسلام ، ولم ينتشر فيه نوره قال الذين قالوا : إن المرأة شيطان ، وان حرمانها من العلم واجب ، وحكم الذين حكموا بأن الأنثى لا يجوز أن تلمس الكتاب المقدس ، ويجب أن توضع على فمها كمامة ، وفي جو آخر غير جو الإسلام كان الفلاسفة يختصمون : أللمرأة روح كروح الحيوان أم لا ؟ كروح الحيوان فقط ، ليس أسمى ، ولئن أثبت بعضهم ان لها روحاً إنسانية فإنه لا يرتفع بها إلى مساواة الرجل على أي حال .

نعم في جو لم يسطع فيه عبير الإسلام ، ولم يشع نوره انتهى المفكرون إلى هذه النتائج ، في أوربا هذه التي تهتف بحياة المرأة وتعقد المؤتمرات المنتديات من أجل

حريتها . !

هناك حدث جميع هذا ، وهناك أيضاً حدث القول بأن المرأة ملهاة للرجل ، والمطلعون من الناس يتذكرون قول (جان جاك روسو) بذلك ، وقد قيد هذا الكاتب حرية المرأة في الدين ، فلم يسوغ لها أن تختار عقيدة ما وإن علمت أنها حق ، وجعل من الحتم عليها أن تتبع دين زوجها وإن أيقنت بأنه باطل (أنظر صحيفة ١١ من كتاب المرأة في عصر الديموقراطية للأستاذ إسماعيل مظهر) .

دين الإنسانية يتعهد جميع نواحيها :

ضروري للدين الذي يطمع أن يكون دين الإنسانية جمعاء أن يتعهد كل ناحية من الإنسانية ، وأن يراعي كل ظاهرة من ظواهرها ، وكل خفية من خفاياها ، فللإنسانية نواحي متباعدة الأطراف متسعة الآفاق ، وللإنسان غرائز وطبائع عميقة الجذور متنوعة الآثار ، وله صلات بما حوله من مظاهر الكون وبمن حوله من افراد الإنسان ، ولهذه الصلات المتنوعة لوازم تفرضها الطبيعة أو تقتضيها الحياة ، أو يحتمها الاجتماع ، ومن الحتم على الدين أن يبسط ملاحظاته على جميع هذه

النواحي وأن يستوعب كل هذه الآفاق ، وأن يغلغل نظره في مستور الغريزة ، وفي مستكن الطبيعة ، وفي مختلف الصفات والصلات ثم يوازن ويقارن ، ويضع حكمه مستخلصاً من جميع هذه الحقايق ، مراعي فيه جميع هذه الجهات .

من الحتم على الدين أن يكون كذلك والا فهو أجب أقطع ، لا يصلح للبشرية ، وإن صلح لجيل منها ، أو لأمة من جيل .

بهذه الخاصة يفترق الدين عن القانون ، فهذا الأخير ضرورة موضعية محدودة ، يفرضها الزمن ، وتلدها المناسبة ، فإذا تحول الزمن ، وتغيرت المناسبة ألغي القانون وحالت مواده ، أما الدين فأنه يستخلص إحكامه من واقع الحياة . ، ومن صميم قوانينها ، فهو راسخ برسوخ الحياة عام بعمومها ، قوي بقوتها .

بلى ، قد تطرأ طوارىء ، وتجد أحداث ، وهذا شيء يجب على الدين أن يلحظه كذلك فيعد له قواعد استثنائية ، يفرضها الاضطرار أو يدعو إليها الحرج .

ومن أجل هذه الخاصة في الدين استحال أن يؤخذ من عقل محدود ، مهما اتسع أفقه ، وبعد إدراكه ، استحال ذلك لأن العقل الواحد (والعقول المجتمعة)

لا يمكن أن تحيط بشؤون الإنسانية جمعاء ، وبطبائعها كافة ، لتضع لها الدين القويم الذي يصلح الاجيال ، وينظم الأمم .

نعم ووجب أن يكون واضع الدين هو الله ، الله الذي خلق الكون ونظم طرائقه ، وأبدع الإنسان وعلم طبائعه ، وأحاط بمقاصده وغاياته .

على هذه القاعدة جرى الإسلام في وضع شرائعه وتأسيس إحكامه ، فكانت من هذا الطراز المحكم الذي لا يتزلزل ، الدائم الذي لا ينسخ ، وبهذه النظرة العميقة المستوعبة أقام تعاليمه في شؤون المرأة ، وأسس مواضع افتراقها عن الرجل .

لا يتفاوت الجنسان في كل هذا :

يقول القرآن الكريم ، معجزة الإسلام الكبرى ، ومصدر أحكامه الأول ، ولسان دعوته الباقي : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء »[1] .

---

(١) النساء : ١ .

ويقول أيضاً : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . » (١) .

ويقول في آية ثالثة : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنون والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » (٢) .

من مصدر مادي واحد ، وعلى طريقة قويمة واحدة ، خلق الله الزوجين الذكر والأنثى .

من نفس واحدة فلا تخالف بينهما في الجنس ، وعلى نهج واحد فلا تمايز بينهما في التكوين ، ولغاية واحدة فلا تفاوت بينهما في المنزلة . . . من الكون ، وفي المنزلة من المجتمع ، وفي الأثر في حفظ النوع ، وفي الأثر في بقاء الحياة .

---

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

لا اختلاف بينهما في ذلك كله .

والـدين . والتقـوى . وسمـو الخلق . وجمـال النفس . ومايستتبعـهالدين من عقيدة وعمل . وما تتقوم به التقوى من عزيمة وإخلاص . وما يمت إلى الخلق السامي من مظاهر وسمات . وما يستدعيـه الجمال النفسي من طهر وتزكيـة . كل هـذه ميادين عـامرة للسباق ، الرجل والمرأة فيها على قدم سواء ، ليس لإحدهما دون الآخر مزية في صلة ، ولا قصور عن غاية ، ولا فضل في استعداد ، والحكم الفصـل فيها كلهـا للأرادة . . . للأرادة الحرة والجهد الصادق ، والمعرفة الصحيحة ، ولذلك فقد تسبق ـ في كل هذه الميادين أو في بعضها ـ أنثى واحدة ألفاً أو أكثر من ألف من الرجال العاملين .

فحقوق الحياة ، وحقوق الانسانيـة ،وحقوق كل فرد بما هو عضو في الجماعة ، وحقوق كل متدين بما هو خاضع للدين ، وما تستلزمه هذه الحقوق من تبعات ، وما تقتضيه من أحكام . كل أولئك عام في شريعة الإسلام ، لا امتياز فيه لصنف من الإنسان على صنف ، ولا تفوق لذكر على أنثى ، ونصوص الدين به صريحة ، وليس في ثبوتها خلاف من أحد من المسلمين ، وقد ذكرنا في ما سبق حق الملك والتصرف ، والعمل ، ومساواة

المرأة للرجل في جميع ذلك .

هل تنكر هذه الفروق ؟

الرجل والمرأة شقا الإنسانية ، منهما تلتئم وحدتها الكاملة ، وبما لهما من الجهد تتقدم الإنسانية أو تتأخر في مضامير الحياة ، والإسلام أعرف الأديان بهذه الحقائق ، وأكثر النظم محافظة عليها .

يعرف الإسلام ذلك جيداً ، ويعترف به العلم القديم والحديث أيضاً ، نعم ، ولكن ما هي نتيجة ذلك وما أبعاده ؟ .

هل يكون مؤدي ذلك أن الرجل والمرأة متشابهان في الوظيفة التي يقومان بها للإنسانية . ؟ إذن فلم لا تتألف الإنسانية من ضم رجل لرجل ، ومن إضافة امرأة إلى امرأة ؟

واضح بها فساد ذلك .

أجل واضح فساده أشد الوضوح ، فالله الذي أعد المرأة للحمل والولادة ، وأعد أنوثتها للحب والزوجية ، وأعد حنانها للحضانة والأمومة ، والله حين خلق الأنثى عاطفة مشبوبة ، وحناناً فياضاً ، ورقة مثيرة ، وجمالاً

جذاباً ، جعل لها وظيفة في هذه الحياة غير وظيفة الرجل الذي برأه خشناً ليكدح ، قوياً ليكافح ، مفكراً ليضع ويبتكر ، هادىء النفس والعاطفة ليذهب ويعود .

علم الله أن المرأة لو أعطت خشونة الرجل وصلابة أعضائه ، وهدوء نفسه ، لم تحسن أن تقوم بدور الزوجة الحبيبة : ولا الأم الرؤ وم ، وعلم الله أن الرجل لو وهب نعومة الأنثى ورقة عودها ، ورهافة إحساسها لم يستطع أن يفارق فراخه ليكسب ، ولم يطق أن يتحمل المصاعب ليكدح ، ولم يقدر أن يطيل التفكير ليتقدم في الصناعة ويبتكر . . .

العاطفة المتلهبة المتوثبة ، التي تثيرها ارفق حركة ، وأول دعوة هي وحدها التي تستطيع أن تلبي دواعي الطفولة من ناحية ، وهي وحدها التي تملك أن تغذي نزوات الحب من ناحية أخرى ، فمن الحكمة أن تسلح بها المرأة .

والتفكير المتزن الثابت الذي يقيس الحوادث ، ويختبر العواقب ، ويسدد العزيمة ، ويستخلص النتيجة ، هو وحده الذي يطيق أن يعالج مشاكل الحياة من جهة وهو وحده الذي يقدر أن يثبت لعوادي الدهر من جهة أخرى فمن الحكمة أن يسلح به الرجل .

علم الله هذا وذاك فهيأ كلا من الجنسين لمهمته ، ومطامع الإنسانية ومراميها في الحياة لا تتم إلا بكلتا الوظيفتين ، وهذه حقائق بينة لا مرية في شيء منها « أما العلم التجريبي فقد اعترف بها إلى حد كبير وبرهن عليها في مجال واسع .

يقول (الكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) : (اختلاف المرأة مع الرجل يعود إلى تكوين الأنسجة ذاتها وإلى تلقيح الجسم كله بمواد كيمائية ، محددة يفرزها المبيض ، فلا يجوز أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة) ومؤلف الكتاب عالم كبير من جهابذة العلم التجريبي الحديث ، وكتابه هذا كتاب جامع عن الإنسان ، وقد حشد فيه أحدث الآراء لأحذق العلماء ، (أنظر صحيفة ١١٤ منه) .

واختلاف الرجل مع المرأة في هذه الأمور لا يعني أن الرجل لا تحكمه العاطفة مطلقاً ، ولا يسيطر عليه الحنان أبداً ، أو يستحيل عليه أن يمثل أدوار الأنثى في كل جهة ، وفي جميع الأحوال ، وأن المرأة لا تملك التفكير الهادىء الثابت حتى إذا ألجأتها الضرورة أن تقوم بأعمال الرجل . اختلاف الرجل مع المرأة لا يعني هذا ، وإنما

يعني أن ذلك حكم طبيعتها الأصلية ، ولا يتخلف شيء عن حكم طبيعته إلا لقاسر .

ويتطاول عباد المرأة ، ومقلدة الغرب ، ويتكلفون شططاً ويرتكبون محالاً ، فينكرون هذا الفروق .

ما المرأة ؟ ما الفروق التي تفصلها عن طبيعة الرجل ؟ ما رقة عودها ، ووهن جسمها ؟ ما تقلبها في العاطفة ، ولطافتها في الاحساس . ؟

كلها فروق ليست في الصميم ، وكلها من صنع الرجل ، وليست من صنع الواقع ، من صنع الرجل لما استبد بالمرأة فأقنعها واقنع الطبيعة من ورائها بأنها واهنة الجسد ، ضعيفة العقل ، وقد أسس الرجل هذه الفروق ليفرض إرادته على المرأة ويخضعها لمآربه ، وعضدته التقاليد والأديان لإنها هي الأخرى من صنعه أيضاً .

هكذا ينكرون حتى اللوازم البدهية للأنوثة ، وحتى الحقائق الأولية للطبيعة ، وكأنهم يحاولون أن يقولوا : المرأة رجل غلطت الطبيعة في شيء من أعضائه ، يحاولون أن يقولوا هذا ، ولكنهم لا يجهرون ، وحجتهم على هذا الجحود أنهم لا يجدون هذه الفواصل بين ذكر الحيوان وأنثاه ، ويجهلون أو هم يتجاهلون أن للإنسان خصائص وطبائع تفصله مراحل بعيدة عن الحيوان .

فللإنسان غريزة اجتماع لا يعرفها أكثر أنواع الحيوان ، وغريزة الاجتماع هذه هي التي فرضت على الإنسان أن يقيم بناء الأسرة ، وأن يتوزع تكاليفها كل بحسب استعداده ، فكان من وحي الفطرة أن تكون التكاليف الخارجية للأسرة مفروضة على الرجل ، وأن تكون التبعات الداخلية موكولة إلى المرأة .

وبعد فإن للإنسان مميزات في الطبائع ، وشؤوناً في التعاطف ، وذوقاً في الجمال ، وقوانين ثابتة لحفظ النوع ، وللإنسان الطفل فقراً طبيعياً لطول الحضانة ، وضرورة ماسة لطول التدريب ، وكل هذا تحتم أن تكون للمرأة في الحياة طبيعة وخصائص غير طبيعة الرجل وخصائصه ، وعلى هذا الاختلاف الأصيل بين الطبيعتين بني الإسلام موارد الافتراق بينهما في الحكم .

الزوجية في الإسلام :

أما أن المرأة متعة للرجل ولذاذة ، فهذا أمر تحكم به الضرورة وتصدقه الطبيعة ، وكما أن المرأة متعة للرجل ولذاذة فكذلك الرجل متعة لها ولذاذة ، ولا ريب في شيء من هذا ولا ضعة فيه أيضاً .

إلا أن الصلة بين شقّي الإنسانية ليست هذه حدودها في الإسلام .

صلة المرء بزوجه في رأي الإسلام أعمق من ذلك غوراً وأوسع أفقاً . نعم ، هي أعمق وأوثق ما دامت المسألة مسألة إنسانية تتحد ، لا شهوات تتحاضن . . .

ومعانيها الروحية والنفسية والاجتماعية في رأي الإسلام أرفع كثيراً من هذه المعاني الحسية ، والقرآن يستعير لهذه الصلة المقـدسة استعـارة هي في منتهى الجمال ، وفي منتهى الأدب ، وهي كذلك في منتهى الكمال ودقة التصوير ، قال يصف هذا الشعور المتبادل : (هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن[1]) .

هل تدبرت جمال هذا التعبير الوافي ، ودقة هذا التشبيه الرقيق ، ودلالة هذه النعوت المتكافئة ، ومدى هذا الأدب المحتشم ؟ .

هل تدبرت أن اللباس ألصق شيء بجسد الإنسان وأن الزوجة ألصق الأشياء بجسده وبروحه ؟ وهل تدبرت ما في تقديم النساء في الآية من سر ؟ . إنها توحي بأن فاقة الرجل إلى المرأة أشد من فاقة المرأة إلى الرجل ! ! .

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

أليس الواقع هو كذلك . ؟ ؟ .

أليس الرجل بمقتضى اختلاطه الكثير ، وتنقله في طلب الرزق ، وبقلة الحواجز لغريزته عن التعبير يكون أشد حاجة من المرأة إلى الصيانة الجنسية ؟ ؟ .

ثم أليست الأنثى بمقتضى طبيعتها التي تندى خجلاً ، وتذوب حياء أولى بأن يتأخر ذكر ضرورتها في هذا المضمار ؟ ؟ .

هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن . ، كل من الزوجين لباس الآخر ، يقيه لوافح الشهوة ، ويصونه عن تبذل الغريزة ، والصلة الزوجية . بعد ذلك وقبله . زينة وجمال لكلا الزوجين في مجال الحياة ، وفي نطاق الأسرة ، وبين جدران المخدع ، زينة وجمال لكلا الزوجين ، كما يتزين الإنسان بلباسه الفاخر وبثوبه الجميل .

وفي الآية إيماء خفي إلى مساوىء العزوبة ، ومآثم الرهبانية أرأيت الإنسان أبشع منه حين يقف متجرداً من كل ساتر ؟ ؟ . ثم أرأيت أشد صلفاً منه إذا مشى مختاراً على هيئته تلك في الأزقة والأسواق ؟ ؟ .

وبعد ، فليست المسألة لباس يخف نزعه في أي حين ولكنها مسألة ضرورة دائمة لا ترتفع إلا لضرورة

أخرى ، هي أبعد منها حذراً ، وأعظم أثراً .

الرباط المقدس :

وقال القرآن في آية كريمة أخرى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . . . [١] .

الزوجة سكن يطمئن إليه المرء ، وبينها وبين زوجها مودة ، وبينها وبين زوجها رحمة ، وقد كونت منذ تكوينها له وهي مخلوقة للزوج من نفسه . . .

الزوجة سكن يثوب إليه المرء في الحياة وفي الأسرة ، وفي المخدع ، فهي ضرورة نفسية ، وضرورة إجتماعية ، وأية نفس لا تفتقر إلى الطمأنينة ، وأي إنسان لا يضطر إلى الخليط ، وبينها وبين الزوج مودة وعطف ، فهي ضرورة روحية وأي قلب لا تنبض به هواجس الحب ، وقد كونت منذ تكوينها له ، وهي مخلوقة له من نفسه ، وهذه لمسة وجدانية رقيقة ، يحرك القرآن بها وتر العاطفة ، ويضاعف قوة الطمأنينة ويذكى نزعة الاجتماع .

---

(١) الروم : ٢١ .

وإذا كانت الزوجة سكناً يثوب إليه المرء في الحياة وفي الأسرة وفي المخدع ، أفليس الزوج سكناً للمرأة كذلك في الحياة وفي الأسرة وفي المخدع ؟ ؟

بلى ، ولكن الأدب القراني العظيم يشير بعبارته تلك إلى الجاذبية التي تمتلكها المرأة في هذا المجال .

على هذا الأساس المكين ، وبهذا الرباط المقدس يشد الإسلام علاقة الرجل بالمرأة ، علاقة تنفح بالحب ، وتشع بالجمال ، وتفيض بالرحمة ، وتتركز على الطمأنينة .

والإسلام إنما يصنع هذا ليوفر للفرد بواعث الراحة في نفسه ويهيء له المثابة الآمنة في اجتماعه ، وليقيم الأسرة ـ وهي بذرة المجتمع ـ على تضامن القلوب ، والتقاء الأرواح ، وإعتناق النفوس ، فيكدح الرجل في عمله حين يكدح ، وهو مطمئن القلب ، لأنه يعد النفقة لسكن محبوب ، وتجهد المرأة في بيتها حين تجهد ، وهي مرحة النفس لأنها تهيء الجو لزوج كريم .

يقيم الإسلام بناء الأسرة على تعاطف القلوب ، وامتزاج الأرواح لذلك ، وليمهد للفراخ عشاً ناعماً ، ثم محضناً مهذّباً ، ثم مدرسة مثقفّة ، يتلقى الأطفال فيها دروس العطف ، وتمارين الحب ، وتعاليم الوداعة ،

ومراسيم التهذيب .

يتلقون فيها هذه المعاني الرفيعة بالوراثة قبل أن يتلقوها بالتربية ، ويتلقنونها بالسلوك قبل أن يتلقنوها بالتعليم .

عمل المرأة في نطاق الأسرة :

وإذن فلتعمل المرأة في نطاق الأسرة ، رأية غضاضة عليها في ذلك العمل ؟ . أليست تتولاه عن رغبة وإخلاص ما دامت تشعر أن أفراد الأسرة الذين تعمل من أجلهم هم زوج حبيب وأبناء أعزاء وأفراد آخرون ، قريبون من زوجها في نسبهم قريبون منه في قلوبهم ، أو هم قريبون منها كذلك ؟ .

أليس في هذا العمل الرفيق أو المعنت إرضاء لنزعة الحب من جهة ، وإرواء لعاطفة الأمومة من جهة أخرى ، وإشباع لغريزة السيطرة من جهة ثالثة ، فهي أميرة المنزل ، ومصرفة شؤونه ، ومنظمة حركته ؟ .

ثم أليس هذا العمل من الزوجة إزاء ما يتحمله الزوج من متاعب الأنفاق ، وما ينهض به من أعباء الحماية ؟ . وأي إرهاق في أن يقسم الإسلام تبعات

الحياة على الشريكين فيجعل على كل واحد منهما ما يوائم طبيعته ، وما يناسب إعداده ؟ .

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » [1] .

أليس هذا هو العدل الذي يلزم على الانسان أن يتبعه متى أراد أن يقسم بالعدل . ؟ ؟ .

ولكن الذي ينكره الإسلام ـ أشد الأنكار ـ أن يقول أحد : المرأة في الإسلام متعة للرجل لا أكثر ، وعامل حقير للأسرة ليست أرفع . . .

ينكر الإسلام أشد الأنكار أن تكون علاقة الرجل بزوجته علاقة حسية ليست أسمى ، كما يرتبط ذكر الحيوان بأنثاه ، وينكر أن تكون المرأة عاملاً مسخراً في الأسرة يعمل بسخط ، ثم لا يستوفي بعض حقوقه إلا بصعوبة .

هذا ما يروم الناقدون حمله على الإسلام أو حمل الإسلام عليه ، وهذا ما يبرأ منه الإسلام ونبيه وكتابه

---

(١) البقرة : ٢٣٣ .

أشد البراءة ، ويسخطه أعظم السخط ، وقد أوضحنا معنى المتعة التي ينعت بها المرأة ، وعيّنا حدود العمل الذي تقوم به بين الأسرة .

ثم ما يريد الناقدون بقولهم هذا ؟

لعلهم يأملون من الإسلام أن يدلل المرأة تدليل ترف وشهوة ، كما صنعت بها أوربا في عهود الرق والأقطاع ، إذن فما هو معنى المتعة الحسية التي يستنكرونها بقولتهم السابقة ؟ ، ولعلهم يطمعون أن يخرج المرأة الناعمة عن حدود طبيعتها ، لتنافس الرجل الخشن في أبهاء المعامل ، وبين جدران المصانع ، ولتصارع أمواج البحار وتكافح تيار الحياة كما أخرجتها أوربا بعد الثورة الصناعية ، إذن فما هو معنى العمل للأسرة الذي ينقدونه ؟

ولعلهم يطلبون منه أن يحل روابط الأسرة لينفرد كل من الزوجين بعمله ، ويستقل بإعبائه ، فتتخلص المرأة من تبعات الأسرة ويستريح الرجل من كلفة العيلولة ، ويرضى الإنسان بحياة الحيوان ، يقوم كل فرد بحمله ، ولا يفكر إلا بأكله ، إذن فما هو معنى الفوضى التي يستنكرها كل بشر ؟ وأين هناءة المنزل وسعادة الأسرة ؟ بل وأين مثالية النفوس وسمو الخلائق ؟ ، وأين

تعاون أفراد الأسرة الذي يمهد به الإسلام إلى تعاون أفراد المجتمع . ؟

إن العدل ـ ولا شك يقتضي أن تراعى طبائع الأشياء ، فتعمل المرأة في حدود طاقتها من غير إرهاق ، وتدلل في حدود أنوثتها من دون سرف ، وتعامل بالمودة والرحمة في هذا وذاك ، تعاوناً بين شطري الإنسانية الواحدة على إقامة أود الحياة ، وتثبيتاً لطرفي العلاقة الواحدة على عهد الحب ، وتأليفاً لطيري العش الواحد على تنشئة الفراخ الزغب ، هذا ما يقتضيه العدل ، ويحكم به العقل ، وهذا ما طبقه الإسلام في تعاليمه ، وقد دللنا عليه .

خروج المرأة عن الحدود :

أما الذين يقترحون على الإسلام أن يخرج المرأة عن هذه الحدود لتزاحم الرجل على المصادر ، وتنافسه في الموارد ، تستعد كما يستعد ، وتعمل كما يعمل ، ويقولون : التكافل الاجتماعي بين الزوجين لا يتم إلا بهذا ، أما هؤلاء فإنهم يغربون في الدعوى ويحيلون .

يقولون غريباً ، ويدعون محالاً ، لأنهم يطلبون من المرأة أن تتخلص من غرائزها الأصيلة التي زودها الله

بها ، وهيأ لها كيانها ، وأي زمان لا تنزع المرأة فيه إلى أن تكون أماً وزوجة ؟ بل وأي زمان لا تكون هذه الأماني أعز شيء عليها في الحياة . ؟

لا بد للمرأة من أن تكون زوجة ، ولا بد لها من أن تصبح أماً ، ولا بد لها من أن تفرّغ للزوجية والأمومة وشؤونهما أطول أمد في حياتها ، ولندع أمر تنظيم المنزل ، وتهيئة جوه للخادم تعمل فيه بالأجرة .

فهل يفرض هؤلاء على المرأة أن تستغني عن هذه الضرورات ، وأن تطفيء هذه الغرائز ، لتخرج مع الرجل تزاحمه على المصادر ، وتنافسه في الموارد ؟ ؟ .

الحق أن الطبيعة أصدرت في هذه المسألة حكمها الفاصل ، ولن تستطيع أن تغيره المرأة ، ولن يملك أن يرفعه عبّاد المرأة ، أما أن يحملوا عليها وظيفة الرجل أيضاً فهذا هو الظلم الغاشم ، وليس من الحق أن يطلبوا إقراره من دين كل ما فيه يهدف إلى العدل .

قد يقولون : والمحاضن والمراضع ؟ أليست تخفف عن الأم أعباء التربية ، واتعاب الحضانة ، وتوفر لها من الوقت ما يكفيها لمساندة الرجل في الميادين ومساعدته على تحمل المسؤوليات ؟

قد يقولون هذا ، ومن النصف أن نعترف لهم ببعض ما يقولون .

من النصف أن نعترف بما يقولون على أن نعتبره علاجاً لضرورة تحكم ، وليس تعليلاً لقاعدة تقرر .

عزيز على المرأة السوية أن تترك طفلها الحبيب لحاضنة أو مرضعة تقوم دونها بتربيته ، وتستأثر عنها بقلبه ، وعزيز على الطفل كذلك أن لا يجد الحنان الحقيقي في مرضعة ولا حاضنة مهما برعت في الصناعة ، وتفننت في أداء الوظيفة .

أجل فللأمومة لغة يجيد فهمها الطفل ، ولا تحسن أن تتقنها الصناعة ، وبين الطفولة والأمومة أصداء عاطفية متجاوبة يعلم مداها ويحيط ببعض آثارها العلماء النفسانيون ، وليس من الحق أن تهمل جميع هذه النواحي لتشارك المرأة رجلها في العمل .

أما بعد ، فإن الإسلام قد أباح العمل للمرأة إذا لم يصادم حقاً للزوج ، أو حقاً للطفل ، أو حقاً لله ، وفرضه عليها فرضاً إذا لم يوجد لها كافل ، وإذا ضعف كافلها عن الاعالة ، وهذا هو حكم الفطرة السليمة أيضاً .

ميراث المرأة في الإسلام :

وحكم المرأة في الميراث لا يخرج عن هذه الكلية أيضاً .

يقول الله تعالى في تعيين ميراث الأولاد : « يوصيكم الله في أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . . . »[1] ، ويقول في بيان ميراث الأخوة : « وإن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين . . . »[2] ويقول في تشريع ميراث الأزواج : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن ، مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين . . . »[3] ، ويقرر التشريع الإسلامي ما يشبه هذا في كثير من أبواب الميراث .

وهذا نصف في الحكم لا مراء فيه ، وليس تعليل ذلك أن الرجل في التشريع الإسلامي يعدل الأنثى مرتين

---

(١) النساء : ١١ .

(٢) النساء : ١٧٦ .

(٣) النساء : ١٢ .

كما يشتهي أن يتقول الناقدون .

بلى تعليله الواضح القريب أن الله قد فرض على الرجل أن يقوم بكفالة المرأة ، وبدفع المهر للزوجة ، وبإعالة الصغار من الذرية ، والضعاف من الأسرة ، ولم يفرض مثل ذلك على المرأة إلا في أوقات نادرة لا تدخل تحت قياس ، فالرجل كافل في غالب الأحوال ، والمرأة مكفولة كذلك ، ومن القسط أن يمد الله في نصيب الذكر هذه المضاعفة لمكان هذه الإعالة ، ولا سيما أن المكفولة أنثى في غالب الاحيان .

ثلثان من المال الموروث يعان به رجل على بناء زوجية ، وكفالة أسرة ، ونفقة ضعفآء ، وتنشئة صبية ، وثلث منه تختص به أمرأة ، لنفقاتها الثانوية . . . الثانوية فقط ، لا لضروراتها لأن هذه الضرورات قد فرضها الدين على الرجل المعيل ، فهل في هذا التقسيم حيف أيها المعترضون المغرضون . ؟

وإذا فقدت المرأة الكافل من الرجال واضطرت أن تقوم هي بحاجاتها في الحياة فهل عليها حيف في هذا التقسيم . ؟

هل عليها حيف إذا خصص لها ثلث المال ، وهي لا تكفل سوى نفسها في الأكثر ؟ أما الحالات النادرة فقد

قلنا إنها لا تخضع لقياس .

شهادة المرأة أمام القضاء :

وحكم الشهادة أمام القضاء لا يعدو هذا أيضاً .

هي مسألة احتياط للعدل ، يمعن في تحقيقه الإسلام صيانة للحقوق وحفظاً للدماء ، وتركيزاً للحق .

أينا لا يعلم طبيعة المرأة وعاطفتها المتوثبة المتقلبة ؟ ثم أينا يجهل مدى تأثير العاطفة في السلوك ؟ .

أليس في هذا ما يحمل الدين الذي يتوخى العدل على أن يتأنى في أمر الشهادة ، وأن يتريث في حكم القضاء ، تأميناً للحقوق ، واستيضاحاً للصواب ؟ .

لا لأن المرأة ـ لعاطفتها المتسرعة ـ قد تتعمد الكذب فهذا شيء قد احتاط له الإسلام من قبل ، فاعتبر العدالة في قبول الشهادة ذكراً كان الشاهد أم أنثى ، والعادل الثابت العدالة لا يتعمد الكذب أبدا .

لا لذلك ، بل لأن العاطفة ـ والشديد منها على الأخص ـ كثيراً ما تعترض البصيرة في طريقها إلى الواقع ، تلون لها الصور ، وتمسخ الحقائق ، حتى تصور لها الباطل حقاً ، وتريها الثابت منفياً ، فيضل الإنسان

ويزل ، وهو يعتقد أنه يرى الحق مجرداً لا غشاوة عليه ، والإسلام شديد الحذر في ميادين العدل وموازين الحقوق ، شديد الحذر أن تخف بعدله كفة ، أو تتحكم في موازينه عاطفة .

من ثم منع القاضي أن يباشر وظيفته حين يعرض له ما يوجب الانفعال ، فلا يصدر حكماً وهو غاضب ، ولا يعالج مشكلة وهو غير متزن ، وحتى مدافعة الأخبثين فأنها قد تسبب للقاضي شذوذاً في الفهم ، أو تقصيراً في التحري ، أو تسرعاً في الاستنتاج ، فلا ينبغي له أن يصدر حكمه وهو يدافعهما . على أن القاضي لا بد وأن يكون ثابت العلم ثابت العدالة في الإسلام .

ومن ثم لم يقبل الإسلام شهادة الرجل كذلك متى حامت حوله الظنون ، وتسربت إلى شهادته التهم .

ومن ثم أيضاً قبل شهادة المرأة إذا انضمت إليها أمرأة أخرى ، لأن العاطفة قد تستولي على المرأة إذا كانت واحدة فتمسخ لها صورة الحق ، ولكن من البعيد جداً أن تستولي على امرأتين فتضلهما معاً على الصواب ، أقرأت قوله تعالى : «فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما ، فتذكر

إحداهما الأخرى » [١] .

وللمرأة في الإسلام جو مستقل لا تختلط فيه بالرجال ، ولا تتصل بمعاملاتهم ومداولاتهم إلا من وراء حجاب ، فمن القريب جداً أن يتسرب إليها النسيان ، نسيان القصة ، أو نسيان بعض مقوماتها من الأمور ، أو ملابساتها من الحوادث فتتزلزل الشهادة ، ويخفى الحكم ، ويبطل الحق ، فكان من الحكمة في الاستشهاد ، ومن الاحتياط للحق أن تضم إلى المرأة امرأة أخرى ، تذكرها إذا نسيت ، وتثبتها إذا زاغت ويقول بعضهم : إن العلم الحديث قد أثبت أن المرأة ضعيفة الذاكرة كثيرة النسيان بحسب طبيعتها ، وإذا صحت هذه النسبة فانها معجزة للإسلام يكتشفها العلم .

فالمسألة مسألة ضمان للحقوق إلى أقصى حد ممكن ، وذهاب مع العدل إلى أبعد ما يستطاع ، لا لأن المرأة نصف إنسان في الشهادة كما يفهمون .

على ان الإسلام قد قبل شهادة المرأة ـ المرأة الواحدة ـ في كل ما تختص به النساء ، وقبل قولها كذلك في كل ما تعد خبيرة به من الأمور ، وصدقها في ما هو

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

أهم من ذلك كله وهو نقل السنه (الخبر الواحد) . وكل ذلك ثابت وغير خفي على من عرف حكم الإسلام في تلك الأبواب .

قوامة الرجل :

وأعجب من جميع ما تقدم حكم القوامة الذي به يلهجون وليتهم أوضحوا مقصدهم من ذلك . . . ؟

لعلهم يؤثرون أن تصبح الأنثى هي القيّمة على الرجل وعلى الأسرة ، بما في أنوثتها من تقلب ، وبما في عواطفها من سرعة انفعال ، وبما لها في عوارض الحمل والولادة والأرضاع من شواغل ، ولعلهم يرون أن تبقى الأسرة والمنزل فوضى لا قيم لهما ولا مدبر ، ولا رأس ولا مرؤ وس.

لست أظن أن يقول بهذا ولا بذاك أحد من العقلاء إلا أن يكون لقسامة المرأة ولسواد عينيها صلة بالاختيار ، وهذا ما لا يحسب له الإسلام حساباً ، ولا يقيم له العقل وزناً .

ولعلهم يرغبون أن يكون الرجل والمرأة كلاهما رأسين يتنازعان الرياسة ، ويتقارعان على الامارة حتى

يعود المنزل جحيماً مستعراً من جراء هذا النزاع ، ثم ينشأ الأطفال فيه مطبوعين بطابع الضعف ، مجهدين بعوامل الاضطراب ، والعقد النفسية ، لأنهم ينشؤون في جو يسوده القلق ، ويغمره التنازع .

« الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »[1] هذا ما يقوله كتاب الإسلام الكريم في تشريع القوامة وفي تعليلها .

ليس محاباة للرجل ، ولا تملقاً لعاطفته أن يجعل الله القوامة على الأسرة بيده ، بل لأن القوامة وظيفة تدبير وموازنة ، والرجل بحكم هدوئه وتفكيره ، وبحكم اعتياده على مجابهة الحوادث ، وتمرن أعصابه على ملاواة الشدائد يكون أجدر بالقيام بهذه الوظيفة .

والرجل من وجهة ثانية هو الذي يجب عليه الأنفاق ، وتتحتم عليه الاعالة ، فتدبير النفقة ، وإدارتها على الوجه الصحيح يكون حقاً من حقوقه ، لأنه تصرف في ماله ، وفي شأن من شؤونه ، لهذا ولذاك أصبحت القوامة حقاً من حقوق الرجل في نظر الإسلام .

أما بعد جميع ذلك ، فإن القوامة إدارة لشركة

---

(١) النساء : ٣٤ .

تستمر باستمرار الحياة ، ويتألف منها ومن نظائرها بناء المجتمع في الكون ، وقد اختار الله لهذه الإدارة أقوى الشريكين على التدبير ، وأعرفهما بلوازم الوظيفة ، وأحقهما بها من حيث وجوب النفقة ، وليس في هذا الاختيار هبوط بقيمة المرأة ولا تحدّ لكرامتها ، ولكنها نظرة لصالح الأسرة ولصالح المجتمع .

نعم ، عيّن الله للقوامة أجدر الشريكين بها ، وقد رشحته الطبيعة لهذه الوظيفة من قبل بما أعدت فيه من قوة ، وما منحته من تفكير ، وعينته الفطرة أيضاً ، ومن أجل ذلك كانت القوامة للرجل عند جميع الناس وفي جميع القرون ، حتى عند أبعد المجتمعات عن المدنية .

وللقوامة في الإسلام حدود ، على الرجل أن يخضع لها في التصرف ، حدود تضمن له الاتزان في الإدارة ، والعدل في الرعاية ، واستحقاقه للقوامة في رأي الإسلام يناط بمقدار التزامه بتلك الحدود .

وغير بعيد أن يضعف رجل عن التدبير ، أو يحيف على الشركة ، فيتجاوز الحد الذي رسمته الفطرة ، وأوضحته الشريعة ولا يضيق الإسلام أن يلغي قوامة هذا المتعدي المسرف أو ذلك المتهاون المسف ، لا يضيق بذلك أبداً ما دام الأمر أمر تدبير وتسيير ، وقد دلا

بسلوكهما على أنهما فاقدان للكفاءة وقد حجر الإسلام سلطان الرجل على ما له إذا كان سفيهاً أو ضعيفاً ، فكيف لا يلغي قوامته على الأسرة إذا كان فاسد الرأي شاذ التدبير .

لا يضيق الإسلام عن ذلك أبداً ، وقد أفتى الفقهاء به ، ولكن عبّاد المرأة يرتكبون ـ لسواد عينيها ـ ما لا يليق ، ويقولون ما لا يصح .

أقرأت هذه الكتب الماجنة التي تزعم أنها تنتصر للمرأة وتسعى لاستقلالها ، وهذه الفلسفة الخليعة التي تعلل المجون ، وتفلسف الجنون ؟ ؟

يصور هؤلاء الكتاب وهذه المؤلفات علاقة الرجل بالمرأة أنها علاقة عدو لدود ينتهز الفرصة بخصمه ، فيكيد له في السر ، ويدبر لاخضاعه في العلانية ، وينزل الضربات المتوالية على رأسه في كل حين ، وليست علاقة حبيبين قريبين يتصلان في القلوب ويمتزجان في الأرواح ، ويتكافلان في تنظيم الأسرة ، ويتضامنان على تنشئة الجيل الجديد ، وتنمية أخلاقه ، وإعلاء صفاته .

تلك هي صلة الرجل بالمرأة لا هذه على ما يتصورون ، ولذلك فهم يطلبون إنصافها في كل جهة ، ومساواتها بالرجل من كل ناحية ، وهم يريدون رفع

القوامة لأنها تفرض سيطرة الرجل ، وتخضع جانب المرأة ، وهم ينادون بكل شيء من هذا القبيل .

وقد يكون لهم الحق في هذا التصوير ، وفي هذا الطلب حين يصورون مجتمعاً آخر لا يدين بالإسلام . . . أما . . . أما أن ينسبوا ذلك لدين الإسلام ، فهذا هو الكذب الصراح ، والصلف الوقاح .

التبرج والاختلاط :

وهنا أيضاً وفي قائمة النقود التي يوجهونها إلى الإسلام يقحمون حديث التبرج والاختلاط اللذين منعهما الإسلام . ! !

ولو كان الحكم في هذه المسألة حكم موازنة وترجيح ، واستنطاق لأدلة النفي والاثبات لصح لي أن أعرض للبحث عنه ، ولو من بعض نواحيه ، . . . ولكن .

ولكنني أعلم انها قصة شهوة عارمة ، تطمع أن تلقي المرأة في كل وجه ، ووسط كل مجمع ، وأن تقضي وطرها منها في كل وقت وبدون قيد ولا شرط ، وأحاديث الشهوة لها سوق عامرة في بيوت البغاء ، وفي محافل

الزناة . . . ولكنها أبعد ما تكون عن منطقة الأديان . والأديان الجادة على الخصوص .

أجل هو حديث أشداق تتحّلب للافتراس ، وعيون تتربص للخيانة ، ونفوس تتوثب للمخادعة ، والإسلام أشد الأديان كلها حرباً على هذه النزوات .

يريد الإسلام للمرأة ، وللمرأة المسلمة على الخصوص أن تكون فوق متناول الأيدي العابثة ، وفوق مطمح الأنظار الخائنة ، والقلوب المدخولة ، يريد لها أن تكون أصفى نفساً من الذهب النقي ، وأسمى متناولاً من الكوكب الرفيع ، يريد لها أن تكون كذلك لتضمن سعادة الأسرة بالأمانة ، وتصبح أمثولة الجيل بالعفاف .

من أجل هذا منع الإسلام المرأة أن تتبرج ، وحظر عليها أن تختلط ، فللذكر غريزة جنسية طاغية ، وموضع طمعها هي خاصة الأنوثة ، وللمرأة نظيرة تلك الحاسة العنيدة ، ومناط رغبتها هي مميزات الرجولة ، وليس أبعث للريبة من الاختلاط العاري ، وليس أورى للنار من الاحتكاك الملهب .

ويقولون هي المدنية ، وهي الحضارة ، تحكم وتحكم ، وتلزم وتلزم . . . ! ! .

العلم ما يريدون ؟ ؟ .

يريدون أن تمشي الأنثى عارية من كل شيء إلا من الصلف ، بين جماهير من المتفرجين خالين من كل شيء إلا من الشهوة . . . هكذا يؤثرون أن يكون ، ولكن . . .

بعيشك قل لي : كم يكون من الفوارق في سلسلة الأرقام بين هذه المدنية العالية ، وبين الحياة العارية الهمجية في غابات افريقيا ، أو بينها وبين طباع الحيوان في مجاهل الهند ؟ ؟ .

أهذا هو كل ما يرجونه من التقدم للمرأة ، ومن المدنية للمجتمع . . . ، نفوس تتقد بالشهوة ، وعيون تلتقي على الخيانة ، وبسمات تقابل على الخديعة ! ! ؟ .

ويقولون : هو الاختلاط البريء ، والتصريف النظيف ، يحل العقد من النفوس ، ويعوّد الشباب على الآداب . . .

أسمعت . . . ؟ هكذا يقولون . ! !

أما كيف يكون الاختلاط بريئاً ؟ وكيف يكون التصريف نظيفاً ؟ وكيف يحل الاختلاط العقد من النفوس ويعوّد الشباب على الآداب ؟ أما هذا

فلا يتكلفون له تحليلاً ولا تعليلا .

بهذه الانماط المخزية من الإدعاءات ينتصرون للمرأة ، وبهذه التعليلات الغريبة يطلبون من المرأة المسلمة أن تلقي الحجاب الذي صانها الله به عن كل حطة ، ورفعها عن كل ضعة .

يزدري الإسلام هذه الحرية للمرأة - إذا صح لنا أن نسميها حرية - ويمقتها أشد المقت ، ويمنع المرأة منها أبلغ المنع ، يصنع ذلك ليضمن للمرأة في حياتها مقاماً أسمى ، وعيشاً أرغد ، ولينشىء للإنسانية جواً طهوراً لا تلتقي فيه خائنات الأعين ، ولا تنتشر فيه أوضار الدعارة ، ثم أن الإسلام لا يخص المرأة بهذا المنع ليقول المتشدقون : منعها عن أمر أباحه للرجال ، فقد شرك في تشريعه هذا بين كلا الجنسين ، فأن خطر الخلاعة على الرجل ليس بأضعف من خطرها على المرأة ، أقرأت قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . . . »[١] .

أما عواقب هذه الخلاعة ، ومغبة هذا الاختلاط

---

(١) النور : ٣٠ - ٣١ .

للتطلب نتائجها من دفاتر التوليد في مستشفيات أوربا ، ومن سجلات الطلاق المدني في محاكم أمريكا ، ولست أرغب في أن أطيل .

ومن الغريب أن كاتباً من أنصار المرأة ـ المسلمين بالطبع ـ يعرض لقوله تعالى : « وقرن في بيـوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »[1] فيكبر عليه هذا المنع الصريح ، ثم يروم تأويل الآية فيفضحه النص ، وتخونه الشجاعة أن ينبذ الإسلام والقرآن فيستغني عن التكلف ، وأخيراً يلجؤه الموقف أن يقول : التبرج في الآية خفي المعنى ، غامض الحدود ، لأنه تبرج الجاهلية الأولى ، وليس في النص ما يحدد معناه . ! ! ثم يخلص إلى أن المراد به نوع من البغاء كان مألوفاً في الجاهلية الأولى لنساء مترهبات ، كن يضربن قباباً على مفترق الـطرق ، وفي موحش السبـل يبـذلن فيهـا انفسهن للمسـافرين والمضـطرين ، ويتقربن إلى آلهتهن بهـذا العمل ، كما يتقرب المتعبدون بأطعام الجائع وكسـوة العاري .

هذا النوع من البغاء المقدس العام هو التبرج الذي

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .

حرمته الآية في رأي الأستاذ ، لا إظهار المرأة زينتها للرجال كما يدعى المفسرون واللغويون ، حتى ولا البغاء الخاص ، ولا البغاء السري أيضاً .

أرأيت إلى أيـة حـطة ينتهي هؤلاء فيما يكتبون ؟ ؟ .

وأخيراً ليعلم الأستاذ أن الآية الكريمة إنما نزلت في أزواج النبي (ص) ، فلا يعم الحكم فيها غيرهن من النساء ، ليقل ذلك ، وليرح نفسه من هذا العناء ، وللتأكد من ذلك لينظر سياق الآية من سورة الأحزاب . أما الآية التي حرمت التبرج على جميع النساء فهي قوله تعالى في سورة النور . « . . . ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني أخوانهن أو بني إخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » [1] .

---

(١) النور : ٣١ .

هذه هي الآية الكريمة التي حرمت التبرج على جميع المؤمنات ، فهل يستطيع الأستاذ أن يؤوّل ؟ ؟ . إذا استطاع ذلك فليقل .

خروج المرأة :

أما منع المرأة عن الخروج إلا لحاجة ، فليس المقصود منه حبسها بين جدران المنزل أن تبدو ، والضغط على حريتها النفسية أن تنطلق ، ليس هذا هو المعنى المقصود من هذا التشريع الأدبي الحكيم .

كل ما يرمي إليه أن تنفرد المرأة إلى منزلها تملأ جوه بالعطر ، وإلى زوجها تفعم حياته بالحب ، وإلى أفراد أسرتها تغمر نفوسهم بالغبطة ، وإلى أطفالها تفتح قلوبهم بالأمل ، وتنشىء طباعهم على الصدق ، وتطبع أرواحهم على الصفاء .

يريد الإسلام من المرأة أن تنفرد لهذه المهمة الكبرى التي لها خلقت ، فهل في ذلك خروج على قواعد التكوين . ؟ ؟ .

يريد من المرأة أن لا تشغلها حفلات القبول عن لوازم الأسرة ، ولا سهرات الخلاعة عن حقوق الزوجية ، ولا سفرات البطالة عن واجبات الأبناء ، يريد

منها أن تشتغل بالجد عن الهزل ، وبالحقيقة عن الخيال ، وبالترفع عن التبذل . . .

وبعد ، فإن الإسلام لم يمنع المرأة من الخروج لتنجز موعداً ولم يمنعها من الخروج لتؤدي حقاً ، ولم يمنعها من الخروج لتمتثل واجباً ، ولم يمنعها من الخروج لتعمل إذا أرادت العمل ، ولم يمنعها من الخـروج لتستجم إذا افتقرت إلى الاستجمام .

لم يمنع الإسلام المرأة من جميع ذلك ، إذا هي التزمت بآداب الإسلام في الخروج وفي المسير وفي الغاية .

أما التبذل والترهل فإن دين الحق أعظم من أن يجيزه ، والمرأة المسلمة أرفع من أن تتمناه .

تعليم المرأة :

وفي هـذا المجال أيضـاً يدخلون حق الثقـافـة والتعليم ، ويسرفون ويطيلون ، كان الإسلام قد حرم الأنثى من هذا الحق ، وكأنه ليس أول من هتف به في اسماع الإنسانية ، وكأن نبي الإسلام (ص) لم يقل قبل ألف وثلاثمائة ونيف وتسعين من السنين (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ، وكأن هتاف القرآن بوجوب النظر وتحصيل العلم لا يشمل عموم المسلمين ،

الذكر منهم والأنثى على السواء . . . ! !

ان الإسلام هو الذي نعى على البشرية أن تخنع للجهل ، وأن ترتكس في الغيّ ، وهو الذي أشاد بفضل العلم من كل صنف وبشأن العلماء من أي نوع ، وإرشاداته في جميع ذلك عامة لا اختصاص لها بالرجال .

وقد كان للنبي (ص) مجلس خاص بالنساء يتلقين فيه الحديث ، ويتعلمن فيه العلم ، وقد جرى كثير من أئمة الدين ومن علماء الإسلام على هذا المنهاج في تثقيف النساء .

ودين الإسلام يرغب كثيراً في أن تتولى المرأة جميع الشؤون المختصة بالنساء كالتوليد والتمريض ، والطب النسوي ، وأن تستعد لذلك بالثقافة اللازمة ، والعلم المجدي ، يرغب في ذلك كثيراً ويفرضه في بعض الأحيان .

ودين الإسلام لا يخصص للمرأة نوعاً من العلوم ، ولا يحظر عليها شيئاً منها إذا كان مباحاً للرجال ، بلى ، قد يقول : إن الأولى أن تشتغل بما يوائم طبيعتها من العلوم ، وما يؤهلها لتأدية وظيفتها في الحياة ، قد يقول : إن الأولى بالمرأة هو ذلك ، إلا أن قوله هذا لا يعدو أن يكون نوعاً من الارشاد .

هذه آراء الإسلام في تعليم المرأة ، ولكن . . . أية علاقة للعلم بالتبرج والاختلاط ؟ . وأية علاقة للعلم بالخلاعة وفقد الاستقامة ؟ وأية علاقة للعلم بالمعاهد المختلطة . . . وبالحركات المثيرة ؟ .

أية صلة لهذا كله بذاك . . ؟

إفنحوا للأنثى معاهد جدية ، تزودها بالثقافة الصحيحة وتصون لها الآداب الرفيعة ، ثم انظروا موقف الإسلام من هذه المعاهد إن كنتم تشككون .

وبالأحرى دعوا الإسلام يفتح للمرأة معاهدة التي يرضاها ويطبق مناهجه التي يعترف بها ، ثم انظروا ماذا ينقص هذه المعاهد من الثقافة ، وماذا يعوزها من النظم التربية والتوجيه . ؟ ؟ .

أما أن تؤسس لها ملاهي ثم يسمونها معاهد ، وتقام لها معارض زينة وأزياء ، ثم يدعونها مدارس علم وتثقيف ، فهذا ما يأنف عن إقراره دين جد وعفة كالإسلام ، ويهزأ به كل غيور وإن لم يكن مسلماً في الدين ، ومفاسد الاختلاط لا يبررها وقوعها في معهد ، ولا يزيل فسادها حدوثها في أدوار التعليم ، أما قول بعضهم : الاختلاط أقوى وسائل العفة . أما صحة هذا القول فقد عرفناها من نسبة الحبالى في تلميذات المدارس

الثانوية الامريكية ، ومن كلمات الغرام التي تنقش على مقاعد التدريس في بعض الجامعات . . . ! ! .

استئذان الولي في النكاح :

لم يقصر الإسلام بالمرأة أن تساوي الرجل في ميدان من الميادين ، ولم يهبط بها عن حدود الإنسانية التامة في أي مجال ولم يفرض عليها غير ما فرضته الطبيعة من الفروق ، ولا غضاضة عليه في ذلك ما دام ينتزع حكمه من الواقع ، واقع الحياة ، وواقع الطبيعـة ، وواقع الملابسات .

لا غضاضة عليه ما دام يرعى الطبيعة ، طبيعة الرجل ، وطبيعة المرأة على السواء .

يقول القرآن الكريم في بعض أحاديثه عن النساء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، والرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم »[1] للرجال عليهن درجة ، درجة واحدة فقط ، أفبهذا تجاوز عن حدود الواقع ؟ ومن ينكر هذا من علماء الأحياء ومن علماء الإنسان ؟ .

درجة واحدة لا أكثر ، هي درجة الفكر المتزن

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

الذي لا يضطرب ، والمصابرة الحكيمة التي لا تنخذل ، وعلى الجملة هي درجة الرجولة القوية ، وأي منصف من العلماء يصل الأمر به إلى إنكار هذا التفاوت . ؟

لم يقصر الإسلام بالمرأة عن مساواة الرجل في موضع ، إذا سمحت طبيعة الأنوثة بالمساواة ، فقول المرأة في ما لها وفي ما عليها هو المتبع ، وتصرفها في ما تحت يدها هو النافذ المقبول ، وليس عليها في ذلك سلطان لقريب ، ولا حكم لبعيد .

أما إذن الولي في النكاح فهو تأمين لسعادة المرأة ، وتثبيت لمصلحتها في حياتها المستقبلة، حياة الزوجية التي تبدؤها بهذا الميثاق .

والزوجية عقد شركة دائمة تستمر مع الحياة ، ومن الحري أن يطمئن كل واحد من الشريكين فيها إلى وجود المصلحة ـ وعلى الأقل ـ إلى عدم الحيف .

والمرأة في دين الإسلام محافظة لا تختلط ، محجوبة لا تتبرج .

من هنا أباح الإسلام للذكر أن ينظر الأنثى التي يطلب نكاحها ، وأجاز للمرأة أن ترى الرجل الذي تريد أن تتزوجه ومن هنا احتاط للمرأة بإذن الولي ، لأنه

بمقتضى اختلاطه يعلم « أو هو يتمكن أن يعلم » من صفات الرجل الخاطب ومن أخلاقه وسجاياه ما يخفى عليها ، ومن هنا أيضاً أسقط قول الولي وأبطل ولايته إذا سفه رأيه فلم يحسن التصرف ، وإذا استغل الحكم لنفسه فلم ينظر لمصلحة المرأة .

على أن في استيذان الولي بالنكاح إشعاراً لنفوس الأسرتين بالقربى الجديدة ، وتأليفاً لقلوب الفريقين على الحب الخالص ، وهذه نظرة اجتماعية كريمة يرغب الإسلام في تحقيقها ، والنكاح في نتيجته ارتباط بين أسرتين ، وان كان في صورته الأولى ارتباطاً بين فردين .

الطلاق ضرورة لا بد منها :

والطلاق في الإسلام ؟

ما الذي يعنون حين يذكرون الطلاق في الإسلام ؟

قد يقصدون أن الزواج أوثق رابطة التقى التشريع فيها بالفطرة ، واتصلت مطامح الجسد بأماني الروح ، فكيف يسلط عليها هذا التشريع : (الطلاق) يبدد أوصالها ، ويقوض نعيمها ، وهذا رأي تبنته الكنيسة المسيحية طوالا من القرون ، فحرمت من أجله وقوع

الطلاق ، ونسبت تحريمه إلى وحي السماء .

ثم أحس المجتمع المسيحي نفسه خطل هذا الرأي ، فنقضت المحكمة فيه ما أبرمته الكنيسة ، واستباح المسيحي باسم القانون ما حظر عليه بإسم الدين ، نعم وفتحت المحاكم المدنية في أمريكا وفي كثير من دول أوربا سجلاتها لحوادث الطلاق وارتفع العدد ، وتضخم القياس ، حتى بذّت البلاد العريفة بهذا التشريع .

أربعون في الماءة ؟ وما أربعون في الماءة ؟ عدد لم يبلغه بلد من بلاد الإسلام في يوم من الأيام ، وهي البلاد التي أباح دينها الطلاق ، وأجاز تعدد الزوجات . ! ! .

هذا العدد الضخم هو عدد حوادث الطلاق في أمريكا المسيحية عام ١٩٤٨ .

ولا أمضي في تسجيل هذا النوع من الإعداد فله مسجلون آخرون ولكني أقول : إذا كان النكاح بناء تفرضه الفطرة وتحتلمه الطبيعة ، فأن الطلاق هدم قد تلزم به الضرورة ، والتشريع الدقيق الكامل هو الذي يؤسس للطوارىء كما يؤسس للثوابت ، ويرعى الضرورة كما يرعى الفطرة .

لا محيد عن تشريع الطلاق حفظاً لكرامة الإنسان

أن تمتهن ، ولا محيد عن تشريع الطلاق صوناً للعلاقة المقدسة أن تهان ، ففي كثير من الأحيان تصبح الإنسانية مهددة الكرامة إذا استمرت الصلة ، وفي كثير من الأحيان تعود الأسرة الزوجية شؤماً مستطيراً إذا قدر لها طول البقاء ، وفي كثير من الأحيان ينقلب عش الزوجين أتوناً يتقد باللهب ويقذف بالحمم ، وإذا لم تحسم العلاقة وينقطع المدد فسيأتي الحريق على سعادة الأسرتين . . . جميعاً لا الزوجين والأبناء خاصة .

وليس هذا فقط هو السبب الذي يلزم من أجله تشريع الطلاق ، فالضرورة قد تحدث لفرط الرحمة كما تحدث لشدة الغضب ، وقد تتولد مع الوفاق كما تتولد مع الشقاق ، وجميع هذه الصنوف ضرورة لا بد لها من العلاج ، ولا علاج لها إلا بالطلاق ، وهذه أمثلة من ذلك :

(١) رجل أصابه أحد الأدواء السارية بحيث يئس من البرء ، وحجر عليه الطب ، وله زوجة في مقتبل العمر وفي مزدهر الصحة ، فدفعته الرحمة لأن يطلقها حفظاً لصحتها من العدوى ، وإنقاذاً لحياتها من الشقاء ، ولنفرض أن بينه وبين زوجته هذه كمال المودة والموافقة ، فماذا يقول الدين أو النظام الذي يحجره عن الطلاق ؟ .

(٢) رجل حكم عليه بالسجن المؤبد ، بحيث لا أمل له بالفكاك ، ولا كافل لزوجته في المعيشة ، فأراد أن يسرحها ليفتح لها باب الأمل ، ويخلصها من أسار الفاقة ، وكبت الغريزة ؟

(٣) رجل عرض له في طاقته الجنسية شلل في الجهاز ، أو همود في القوة ، أو استبان له بعد التزويج انه عقيم لا مطمع له بالنسل ، فحملته رأفته بزوجته الشابة الولود على أن يطلقها لئلا تمنع بسببه من شهوة الجنس أو تحرم من لذة النسل . ؟

(٤) رجل مسته الفاقة الشديدة فلا يستطيع الأنفاق ، أو رهنته الأسفار الطويلة فلا يمكنه الحضور ، وأراد بإنسانيته أن يريح زوجته من هذا الفقر المدقع والعناء الدائم .

ماذا يقول الدين أو النظام الذي يمنع الطلاق ؟ أيعصي هذا الإنسان هاتف الرحمة في ضميره فتبقى زوجته في أسار البؤس وشدة الأرهاق ؟ أم يقول إن الطلاق في هذه الأمثلة وفي ما يشبهها ضرورة لا بد من المصير إليها لأن تحريمه لا يتفق وسير الحكمة وطبيعة الأمور ؟ .

لست أحسب ديناً من الأديان أو نظاماً من الأنظمة

يمنع الطلاق إذا تصور هذه الفروض ، نعم ، لست أحسب ديناً أو نظاماً يبطل هذا التشريع إذا كان يرعى الحكمة ويلحظ الحاجة .

الزواج أحد هذه العقود المحكمة التي تشيع بين الناس ، والتي ينيطون بها معاملاتهم ، ويؤسسون عليها شركاتهم ، ويحكمون بسببها شؤونهم ، كلها تستدعي بطبيعتها الدوام ، وتتصف بالإبرام ، ولا ريب في ذلك .

ولكن ليس من العدل أن يشرع قانون يمنع إبطال العقود ، ويحرم فسخ الشركات ، يمنع إبطال العقود أي عقد كان ، ويحرم فسخ الشركات أية شركة اتفقت ، حتى إذا مست الحاجة إلى الفسخ ، وانتفت الفائدة من البقاء ، ليس من العدل أن يشرع هذا القانون ، ولو سن لقال الناس كلهم عنه هو تشريع جائر ، يحدد الحرية ولا يرعى الضرورة .

فلماذا نطلب أن يقع مثل ذلك في الزواج بخصوصه ؟ . ولماذا نأخذ على الإسلام أن يعد لهذه الضرورة وأن يتأهب لحدوثها بتشريع حكيم . ؟ .

الواقع إن هذه شبهة لم يكن من المعقول أبداً أن تقال ، لو لم يكن قائلها من المستشرقين ، أو لم يكن الذي قيلت فيه هو دين الإسلام .

أسمى عاطفة وأكرم معاشرة .

قد يقولون هذا ، ولنتساءل هنا لنكتشف أمراً له حظه من الخطورة : هل هذه الشكوك والظنون التي تحدث بين الأزواجِ نتيجة مباشرة لتشريع الطلاق ؟ ، فلم تكون أكثر وقوعاً في الأوساط التي لا تدين بالإسلام ، وبين الأزواج الذين لا يقرون بتشريع الطلاق ؟ .

لست أجحد أن من الناس من لا يقتنع بما يجد ، ولا يرتوي بما يملك ، فهو يتطلع ويسرف في التطلع ، ويرغب ويلح في الرغبة ، ولست أجحد أن من الأزواج النهمين من يجعل الطلاق ذريعة لمآربه ، ولكن أية غضاضة على التشريع الصحيح إذا اتخذه المجرم سلماً للجريمة ، والمسرف وسيلة للاسراف ؟ .

ثم لنتساءل ثانياً : أي الزواجين أرعى للمستقبل ، وأقدر على حسم الشكوك والظنون ؟ ، آلزّواج الأبدي الذي لا تشرع بعده فرقة ، ولعل أخلاق الزوجين لا تتفق ، ولعل ألفتهما الأولى لا تستمر ، ولعل حبهما القديم يتحول إلى بغض شانىء ، ومقت مجحف ؟ أم الزواج الذي لا يمنع فيه ذلك ، فيعلم الزوجان حين يقترنان انهما يقبلان على اجتماع سعيد ، أو ينتهيان إلى فراق مريح ؟ ؟ أي النظرتين في الزواج أرعى

للمستقبل ، وأقدر على حسم الشكوك ؟ .

أظن أن الجواب واضح ، ولا يتردد فيه منصف ، فان الفارق جلي بين تشريع يضع الزوجين في أسر لا يملكان الفكاك منه إلى الأبد ، مهما تبدلت الأمور وتقلبت الأحوال ، وتشريع يضمن لهما الثقة بالمستقبل بما يستطيع أن يضمنه تشريع .

ولنتساءل أخيراً : ماذا أعدّ الإسلام لهذه الأحداث حين وضع للناس منهاج الطلاق ؟ هل أو كل الأمر إلى الأزواج يفعلون ما يشتهون ، بلا رقابة ولا نكير ، فيحيف القوي على الضعيف حتى يلجئه إلى الطلاق ، ويضطره إلى اسقاط الحقوق ؟ ، وهل ترك تشريعه هذا كما يريد المتقلبون باباً للتنقل مع الشهوة ، والتقلب مع الرغبة ؟ .

لست أعلم ديناً من الأديان ولا نظاماً من الأنظمة قد احتاط لهذه الأشياء كما احتاط لها دين الإسلام ، فهو الذي جعل للعلاقة الزوجية حدوداً يحرم على الطرفين تخطيها ، وفرض لكل من الزوجين حقوقاً يجب على الآخر أن يقوم بها ، وهو الذي وصف العلاج الحاسم عند خوف النشوز ، ووضع نظام التحكيم عند خوف الشقاق ، وهو الذي حرم المضارة بكل أنواعها ، ومنع التعدي بجميع اقسامه ، وقرآن الإسلام هو الذي اتخذ

على أن هنا حقيقة لا يتسامح فيها ، فالطلاق ضرورة . والضرورات إنما تقدر بقدرها كما يقول العلماء الأصوليون ، فلا بد له من حدود تقيد إطلاقه ، ولا بد فيه من شروط تمنع إرساله .

والمفهوم من ذلك : أن الطلاق لا ينبغي أن يقع من كل قائل ولا يصح أن يوقع في كل حالة ، نعم ، وهكذا صنع الإسلام حين شرع نظام الطلاق .

فلا يصح الطلاق إلا في حالات معينة ، وبألفاظ صريحة محدودة ، وبقصد متجه معلوم ، وبشروط مبنية تلزم مراعاتها ويجب توفّرها .

ولا يقع الطلاق إلا بحضور شاهدين عدلين ، وفقه أهل البيت (ع) يعرّف القارىء ما معنى عدلين .

ولا يوقع الطلاق إلا بعد محاولات طويلة لاستبقاء الصلة ، واستئناف المودة ، ولا يوقع الطلاق إلا بعد ضمانات لحقوق المرأة من حيث المهر ، ومن حيث النفقة ، ومن حيث الحضانة . . .

ويستتبع الطلاق أحكاماً كثيرة ليس هنا موضع عرضها وكلها ترمي إلى صون النسب أن يختلط أو يشتبه ، وإلى حفظ حقوق الزوجين كاملة قبل الطلاق

وبعده ، وإلى إعطاء الفرصة الكافية لاسترداد الزوجية حين يجدّ الأمر ، وتتغير الحال ، هكذا صنع الإسلام حين شرع الطلاق . . .

أنا أعلم أن من المذاهب المسلمة من يبيح وقوع الطلاق من الزوج في كل وقت ، وعلى أية حال ، حتى إذا كان عابثاً أو غالطاً ، وحتى إذا كان غافلاً أو مكرهاً ، نعم ، وحتى إذا كان سكران أو نائماً . ! !

أنا أعلم ذلك جيداً ، ولكنني أعلم كذلك أنه رأي مسف ، ليس عن النصف أن يحمل على الإسلام ، وتعاليم الإسلام في الطلاق وأحكامه وتوابعه واضحة في الكتاب ، وفي الثابت من السنه .

لا خطر في الطلاق على الزواج :

وقد يقولون : تشريع الطلاق خطر على صلة الزوجين ، لأنه يحدث لهما ظنوناً في المستقبل ، ويثير لهما شكوكاً في السعادة ، فيقبلان على الزواج بفتور ، ويقيمان في ظله على تريب .

كل ذلك لأن الطلاق نافذة تطل بهما على خارج حدود الزوجية ، فيتطلع الرجل إلى زوجة أخرى هي أدنى لقلبه وألمس لعواطفه ، وتتشوف المرأة إلى زوج جديد هو

شتى الأساليب في إرشاد الأزواج ، فخاطب عقولهم بما يردّها إلى الصواب ، وتحدث إلى عواطفهم بما يذكرها بالمودة ، وقرن أكثر هذه الآيات بإنذارهم مقت الله ، وأليم أخذه ، إذا هم تجاوزوا حدود الله في شيء من ذلك .

والطلاق بعد كل هذا أحد الإيقاعات ، والإيقاعات في الشريعة لا تجري إلا في جو مليء بالحرية والاختيار .

لماذا كان الطلاق حقاً للرجل ؟

وقد يقصدون أن الزوجية وشيجة تصل بين طرفين ، وأن الطلاق نقض لهذه الصلة ، واللازم الصريح لهذا أن يكون الطلاق منوطاً بموافقة الزوجين معاً ، فكيف يجعله الإسلام من حقوق الزوج وحده ؟ أليس من الجور أن يتحكم شخص بمستقبل شخص آخر ، ثم لا يكون لهذا الآخر حق الاختيار في الرد أو القبول ؟ ، ولم لا يكون للزوجة رأي في النقض كما كان لها رأي في الابرام ؟ .

وهذه نظرة تستحق الدرس والتمحيص .

تستحق الدرس والتمحيص لأنها تذكر مستقبل

المرأة ، وتستحق الدرس والتمحيص كذلك لأنها تتعلق بالصلة الزوجية .

هل الطلاق تحكم في مستقبل المرأة ، وتحطيم لسعادتها ؟ وإذا كان الطلاق حلاً للعقدة الزوجية . فهل يجب أن يكون هذا الحل مشروطاً يرضى كلا الزوجين ؟

لست أظن أنهم يجدّون حين يذكرون السؤال الأول ، فالطلاق في صميمه ليس تحكماً في مستقبل المرأة ، ولا تحطيماً لسعادتها ، ولايشك في ذلك من يستقرىء أحكام الطلاق في الإسلام .

فالطلاق لا يجري إلا بعد ألف محاولة ومعادلة لاستبقاء الصلة ، واسترداد الإلفة ، وإلا بعد اليأس من الجدوى في تلك المحاولات واليقين بعدم الصلاح في بقاء العلاقة . . . ، هناك فقط يقول القرآن : « وإن يتفرقا يغن الله كُلّاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً » [1] .

إذن فأية سعادة للمرأة يحطمها الطلاق ؟ وأي مستقبل لها يتحكم فيه الزوج ؟

إن الطلاق يستنقذها من هوة سحيقة ليس لها منها مخرج ، وإنه يفتح لعينيها باباً للنور ، فلتنظر لنفسها

---

(١) النساء : ١٣٠ .

مستقبلاً أحفل بالهناء وأضمن للسعادة ، أما ما يتعلق بماضيها وبأبنائها فقد وصف الدين لها أنجع ما يمكن من علاج وأعد لها أوثق ما يعتمد من ضمان . . .

وإذا وقع الطلاق فهل انتهى به كل شيء ، وانقطع به كل أمل ؟ .

إن الفرصة لا تزال موجودة لاسترداد السعادة إذا كانت هناك سعادة مفقودة ، وكان هناك حب دفين ، فالرجعة في العدة ، والنكاح الجديد فيما بعد العدة بابان مفتوحان إذا رغبا بالدخول فيهما .

أما السؤال الآخر فله حظ من الواقع ، وهو لذلك يستوجب التريث ، والتدبر .

الطلاق حل وضعي لموضوع الزوجية ، والزوجية عقدة تصل بين طرفين ، ليس في هذا شك ولا في ذاك ، وإذن فلا بد من الرضى ، ولا بد من المعادلة .

لا بد من الرضى لأن الطلاق تشريع اختياري يعتمد على الإرادة ، ولا بد من المعادلة لأن كل حق في الشريعة يقابله واجب فيها ، فإذا شرعت في الطلاق حقوق للرجل أو للمرأة فلا محيص من أن يعادل كل حق من هذه الحقوق واجب من الواجبات ، هذه هي الحكمة العادلة عند كل عقل ، وهذه هي سنة الله تعالى في كل

تشريع ، وهي سنته في الحكومة بين الزوجين على الخصوص ، « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » [1] .

وإذن فليجعل الطلاق حقاً للرجل وحده أو للمرأة وحدها ، فأي حيف في ذلك ؟ أي حيف إذا عادل هذا الحق واجب يكفل مصلحة الفرد الآخر ؟ وأي حيف إذا سرت هذه المعادلة في جميع الحقوق ، فكانت لكل حق تبعة ، ولكل تبعة ضمان ؟

وبعد هذه التوطئة السريعة لنذكر الفروض التي نتصورها للطلاق :

(١) يمكن أن يكون الطلاق مشروطاً باختيار الزوجين ، فلا يصح إذا لم يأذنا معاً ولا يصح إذا لم يأذن أحدهما وأن رضي به الآخر ، وفي هذا الفرض ضمان لحقوق الجانبين ما في ذلك شك . . . ولكن .

أيضع ذلك حداً للتخاصم على جميع التقادير وفي جميع الأحوال ؟ .

فإذا أصر الرجل ـ لضرورته الملحة ـ على الأنقاذ ، وألحت المرأة ـ لعاطفتها الشديدة ـ على الامتناع ، فماذا يكون المخرج ؟ .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

وهل تصنع المحاكم شيئاً إذا تدخلت في الأمر ؟ .

تملك المحكمة أن تجبر الرجل على أن لا يفعل ، أو تقسر المرأة على أن تفعل ، ولكنها لا تملك عليهما أن يأذنا راضيين .

الحق أن هذا الفرض لا يضع حداً للنزاع في جميع الأحوال .

(٢) ويمكن أن يكون الطلاق مشروطاً بقول المرأة ، بقول المرأة فقط ، بحيث لا اختيار فيه للرجل أبداً ، أما الحقوق فيصونها انها معادلة بواجبات ، فليس في هذا الفرض جور من هذه الناحية . . . ولكن .

أيصح أن يوكل أمر العلاقة الزوجية إلى المرأة ، بما فيها من تقلب وانفعال ؟ ، أليس في هذا تعريض للرباط المقدس إلى الانحلال لأ وهي سبب وأقل حادث ؟ ، أليس ذلك حكماً على الصلة المحكمة الثابتة بالتذبذب والترهل ؟ .

الحق أن الاحتفاظ بوثاقة الصلة وثباتها لا يتفق مع إيكالها إلى تحكمات العاطفة ، التي ترضى لإضعف سبب وتبالغ في الرضى ، ثم تغضب لأدنى موجب وتسرف في الغضب ، ودخول المحكمة في الأمر لا يزيده إلا تعقيداً ،

إذن فليس إلا الصورة الثالثة ، وهي :

(٣) أن يكون الطلاق منوطاً بإذن الرجل . . . الرجل فقط ، الرجل الذي يغلب على طبعه الاتزان والثبات ، ودقة الموازنة ، وعمق التفكير . . . الرجل الذي يقع عليه أكثر التبعات إذا هو اختار الفراق . . . الرجل الذي دفع المهر ، ثم أدّى النفقات طوال الحياة الزوجية ، فلا يرضيه أن تضيع هذه الجهود منه إلا حين يضطر .

هذا الفرض وحده هو الذي يضع الحدّ الفاصل للنزاع على جميع التقادير ، وهو الذي يتفق مع إحكام الصلة ، وثبات طبيعتها . . .

أقول : النظرة التشريعية العادلة تقتضي أن يوضع مصير العلاقة بيد أقوى الطرفين على الموازنة ، وأبعدهما عن الانفعال ، واحملهما للتبعات . . .

ثم ما يكون بعد ذلك ؟

ثم لينظر الرجل لنفسه وليختر لها إذا شاء ، فإن اختياره لنفسه سيكون بذاته اختياراً للجانب الآخر ، ألم نثبت أن الحقوق والتبعات متعادلة في الإسلام ؟ .

وبعده فقوانين الشريعة من ورائه تحرّم عليه أن

يجحف ، وتمنعه من أن يضار ، والله من وراء الشريعة والقوانين رقيب على ما يسر حسيب على ما يعمل .

على أن للمرأة في الإسلام حقاً في طلب الطلاق إذا بذلت مهرها للزوج ، أقرأت قوله تعالى : « فإن خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » [1] .

حق الرجعة :

وإذا كانت الحكمة توجب أن يكون الطلاق بيد الزوج ، فهل الصواب أن تكون الرجعة بيد الزوجة ؟ هل يعد من الحكمة ذلك ، فتصبح الزوجية متأرجحة بين الطرفين إذا كانا متطرفين ، يشد أحدهما لأن له الحكم في الشد ، ويقطع الثاني لأن له الحق في القطع ، وتستمر هكذا قلقة متذبذبة ، حتى ينقطع حق الرجعة ، أو يرتفع حق الطلاق ؟ هل يعد هذا من الصواب . ؟

أو يعد من الصواب أن ينسخ حكم الرجعة أبداً ، فلا حق فيها لزوج ، ولا رأي فيه لزوجة ، ويسد عليهما باب العودة ، ولعل بهما حنيناً إلى العهد السابق ، وخفقة

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

من الحب القديم . ؟

لا . . . ليس هذا ولا ذاك من الحكمة في شيء :

يعرف الإسلام جيداً هذه البدوات التي تجمح بالقلب عن القلب ، وتبعد بالروح عن الروح ، حتى يستيقن الرائي أن لا صلة بينهما بعد ولا لقاء ، ثم يجدّ الأمر ، وتزول العقاب ، وتصفو النفوس ، وإذا بالحب ينتعش ، وإذا بالقلوب تعتنق ، وإذا بالأرواح تمتزج ، وإذا بكل حاجز أقامته المباينات يتحطم .

يعرف الإسلام هذه البدوات بين القلوب ، ويعرف أن الزوجين ـ بمقتضى عشرتهما الدائمة وحياتهما المتكررة المتشابهة وأذواقهما المختلفة ـ سيلتقيان من هذه العوارض بالشيء الكثير ، ولذلك فهو يحسب لها ألف حساب ، ويأخذ لها أقوى أهبة ، فهو لا ينفذ حكم الطلاق إلا حين ييأس المصلح ، ويمل الحكم ، ويبرم الشاهد .

فإذا ألقى كلمة الفراق فليس مؤدي ذلك إنها البينونة التامة ، والفصل النهائي ، فهنا أيام التربص ، وهي فرصة جديدة للزوجين يملكان فيها معاودة النظر ، وأزاحة العوائق ، وبعث الصلة .

هذه هي نظرة الإسلام حين شرع حكم الرجعة ،

وحين جعلها بيد الرجل ، احتياط لا مفر عنه ، وحق لا مراء فيه .

أما الكتّاب الذين يستنكرون من الإسلام هذا التشريع فأنهم يجهلون بدوات القلوب .

تعدد الزوجات :

وأما مبدأ تعدد الزوجات فهو الآخر إعداد لا محيد عنه لأي دين ، ولأي قانون ، إذا لم يكن الدين باطلاً ، ولم يكن القانون هازلاً .

أجل ، هو إعداد لطوارىء كثيراً ما تحدث ، ولا بد لها من إعداد ، ولا بد لها من علاج وفيما يلي أمثلة من هذه الطوارىء .

(١) رجل تزوج أمرأة فأولدها عدة بنين ، ثم أصيبت بأحد الأمراض السارية الفتاكة ، فماذا يصنع هذا الزوج المسكين ؟ أيكبت من نفسه غريزة الجنس ، وهي تستشيره عند كل بارقة ، فيعيش مضطرباً بين قلق النفس ، وألم الكبت ، وإلحاح الغريزة ؟ أم يطلق زوجته المريضة ، ليستبدل مكانها زوجة أخرى ، فيجلب للأولى ولأولاده منها شقاء بعيد الحد ويسبب لنفسه من جراء ذلك عناء طويل الأمد . ؟ ولعل دينه لا يبيح له

الطلاق ، أم يحتفظ بصلته الأولى ، ولكنه يلقي بنفسه في حجور البغايا وأحضان الخلائل ، فيصرّف الطاقة المحبوسة ، ويحل المسألة المشكلة ، بحل غير مرضي وغير شريف ؟ ؟ .

ما يصنع ، وهذه الحلول كلها فاسدة ، وهذه الطرق كلها ممنوعة ؟ .

لم يبق إلا حل واحد ، هو أن يتخذ زوجة شرعية أخرى بحيث يكون لها من الحقوق واللوازم كل ما للزوجة الشرعية الأولى .

أما الدين الذي لا يبيح له ذلك فأنه يوقعه في مشكلة خلقية ونفسية ليس لها حل ، ولا يمكن لدين إنساني أن يتصف بذلك .

(٢) رجل تزوج أمرأة ثم استبان إنها عقيم لا تحمل أو مجهاض لا تلد ، فماذا يفعل ؟ أيكتب عليه أن يعيش محروماً من النسل ، وهو خصب الذكورة ، مستعد للإنتاج ؟ أم يتخذ له خليلة محرمة يغذي بإيلادها شهوته إلى النسل ؟ وهل يجديه ذلك وهو يعلم أن الخليلة ليست زوجة شرعية ، وأن أولاده منها ليسوا أولاداً شرعيين ؟ ؟ ، وأخيراً ينحصر الحل الصحيح بمبدأ تعدد الزوجات .

(٣) رجل تزوج أمرأة فأولدها ، ثم أصيبت بنفور جنسي شديد ، بحيث لن تستطيع هي أن تجيبه إلى الوصال ولا يملك هو أن يكرهها عليه ؟

(٤) رجل شاذ في طبيعتـه الجنسية ، بحيث لا تطفيء سعاره زوجة واحدة ؟ ؟ ماذا يصنع الرجل في هذه الفروض كلها إذا كان الدين لا يبيح له أن يتزوج مرة أخرى ؟ ؟ .

ولماذا نذهب بعيداً فنعدد فروضاً فردية ، وإن كانت كثيرة الوقوع ، وشديدة المحاذير ؟ ، لنذكر فرضاً واحداً هو أظهر في الوقوع وأشد في المحذور.

(٥) رأينا الحرب العالمية الثانية ، وما جلبته على الإنسانية من ويل ، وسمعنا بأحاديث الحرب الأولى ، وما أعقبته في العالم من تدمير ، وقد فني في هاتين الحربين عشرات الملايين من الرجال والشبان . ونتيجة لهذا الوباء المهلك فقد زاد عدد النساء على الرجال زيادة هائلة .

فماذا يصنع الدين لهذا العـدد الضخم الذي لا يقابله أحد من الرجال ، أيفتح لهن دور البغاء ليبلغن حاجتهن من الجنس ويشبعن رغبتهن من النسل ؟ ، أم يفرض عليهن أن يسكنّ الأديرة ويتمسكن بالرهبانية ؟

تعدد الزوجات إعداد لا محيد عنه لأي دين ،

ولأي قانون ، إذا لم يكن الدين باطلاً ، ولم يكن القانون هازلاً .

والحق يقتضي أن نوجه ذلك نقداً على الدين الذي يمنع لأنه لا يجاري طبائعِ الأشياء ، ولا يستعد لطوارىء الحياة أما أن نوجهه نقداً على الدين الذي يبيح ، فهذه حطة في الرأي ، وانحراف في التفكير ! ! .

نعم ، تعدد الزوجات ضرورة يقصد منها العلاج ، وليس بطراً يقصد منه الأرتواء ، ومن أجل ذلك حده الإسلام بأربع ، ولم يتركه لنهمة الرجال ، وموازين الأرقام .

أربع نساء هو الحد الأعلى للتعدد ، لأن ذلك هو الحد الأعلى لضرورة ، أما الحالات التي تلجىء إلى أكثر من ذلك فهي نادرة الحصول ، أو معدومة الوقوع .

ودين الإسلام يشترط للتعدد شرطاً آخر وراء الضرورة ، وهو العدل ، يشترط ذلك ضماناً لمستقبل المرأة ، واحتياطاً لسعادة الأسرة ، أقرأت قوله تعالى : « . . . فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » [١] .

---

(١) النساء : ٣ .

وقبل أن أنهي الحديث عن تعدد الزوجات أوّد أن أذكر حجة يتعلق بها كاتب مسيحي مشهور لأبطال شريعة التعدد ، أوّد أن أذكر هذه الحجة ، لما في عرضها من تسلية ولما لهذا الكاتب من شهرة ، وليعلم القارىء أن التعصب الذميم الممقوت يذهب كل مذهب ، حتى بهؤلاء الذين يعدهم الناس في الطبقة الرفيعة من المثقفين ، بهؤلاء أيضاً يجمح التعصب حتى يسد عليهم أبواب التفكير ، ويلجؤهم إلى ركوب الصعاب .

يقول هذا الكاتب : (بعد ما خلق الله آدم قال إن هذا الإنسان وحده ، فلنصنعن معيناً له ، وأخذ من صدر آدم ضلعاً وصنع منه حواء ، فكانت حواء زوجة لآدم ، ثم يقول ؛ فلو شاء الله إباحة تعدد الزوجات لأخذ ضلعين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، من صدر آدم ، وصنع منها أربع زوجات له . . .) .

أسمعت بالكاتب الاجتماعي الشهير ، الأستاذ نقولا الحداد ، مؤلف كتاب (علم الاجتماع) وكتاب (علم أدب النفس) ، وكتاب (الحب والزواج فلسفة وسنة) ، إنه هو الذي يقول هذا في كتابه (ذكراً وأنثى خلقهم) أنظر صحيفة (٢٢٦) . فهل في وسعك أن تقرأ وتعجب ؟

نعم بهذا الأسلوب الفج ، وبهذا المنطق الملتوي يحتج هذا المؤلف لما يختار ، وبهذا يقرر إن إرادة الله تجحد التعدد كأن القائلين بتعدد الزوجات يقولون بوجوبه ، فيكون تزويج آدم بواحدة هدماً لما يزعمون . . . ! !

ثم ما يكون بعد ذلك ؟

رجل ينقص من صدره أربع أضلاع ، ويكلف بإعالة أربع نسوة في النفقة ، وسد حاجتهن في الجنس ، أرأيت أكثر صواباً من هذا التفكير ، وأعظم عدلاً من هذا التشريع ؟

ويستمر المؤلف على هـذا اللون الباهت من الدعاوى ، وعلى هذا النمط الزري من الحجج ، فيدعى أن عدد الذكور في كل زمان وفي كل مكان يساوي عدد الاناث ، وإن حكمة الخالق إنما اقتضت هذا التساوي العام لتصبح لكل فرد من الرجال زوجة واحدة من النساء ، فإذا تزوج رجل أربع نسوة فقد غصب حق ثلاثة من الرجال . . . ! !

ولا أذهب بعيداً في جواب هذه الدعوى فأقول : إن النسبة بين العددين مختلفة جد الاختلاف ، وليس لها ميزان معين في أبواب الأرقام ، وإن إنتاج الأطفال الاناث أو الذكور إنما يرجع إلى تهيؤ خاص في البويضات التي

تلقيها المرأة وفي الجراثيم الملقحة التي يقذفها الرجل ، بل وإلى نوع من المواد التي تفرزها أعضاء المرأة في أثناء العلوق وفي أدوار الحمل .

لست اذهب بعيداً فأحيل الأستاذ إلى احصاءات النفوس العامة في جميع الممالك ، ليعلم إن النسبة بين العددين مختلفة جدّ الاختلاف .

ولكن إلى أمر محسوس لا ينكره واحد من العقلاء ، ولا يمكنه أن يكابر فيه .

إلى هذه الممالك الإسلامية التي يشيع فيها تعدد الزوجات ، فهل يجد ـ ولو نادراً ـ أن رجلاً في هذه الممالك طلب التزويج فعسر عليه وجود المرأة ، لأن حصته من النساء قد اغتصبها رجال آخرون ؟ ؟ .

ويرى الأستاذ (مونتسكيو) من المحاذير الكبرى لتعدد الزوجات ، أن الأب والأم يقدر أن على حمل ذات الحب لأولادهما ، وأن الأب لا يستطيع حب عشرين ولداً له كما تحب الأم اثنين منهم ، أنظر الجزء الأول من كتابه « روح الشرائع ص ٣٧٨ » .

والأستاذ في نظرته هذه يقيس العواطف بالموازين التي تقاس بها الاجرام ، وإلا فكيف يخلص إلى هذه النتيجة .

لست أنكر أن كثرة الأولاد قد توجب ضعف العاطفة في الأب ، إلا أن هذه ليست نتيجة لتعدد الزوجات ، ليفرض أن الأولاد العشرين كلهم لزوجة واحدة ، فإن النتيجة لا تتغير ، وكما أن كثرة الأولاد قد توجب ضعف العاطفة في الأب ، فانها قد توجب ضعف العاطفة في الأم أيضاً ، فهل يصح لنا أن نأخذ ذلك دليلاً على منع المرأة من الزواج ثانياً إذا فارقها الزوج الأول بموت أو طلاق ؟

ثم يسف الأستاذ إلى أبعد من هذه الغاية فيقول : ويؤدي تعدد النساء ، إلى ذلك الغرام الـذي تأبـاه الطبيعة ، وذلك أن الدعارة تستدعي دعارة أخرى .

نعم . اتخاذ الزوجة الشرعية الثانية والثالثة دعارة تستدعي دعارة أخرى في رأي الأستاذ ، أما اتخاذ الاخلاء والخلائل تحت ستار النكاح الموحد ، أما هذه النتائج التي يسوق إليها المنع عن التعدد فليست دعارة ولا غراماً تأباه الطبيعة .

معذرة إلى قارئي العزيز وإلى صديقي الكريم ، فإني لم أفكر في وقت ما أن أصل إلى هذا الاسفاف ، ولكن الكلام على هذه الحجج يسوقني إليه سوقاً فماذا أصنع .

القسم في الليالي :

والقسم في الليالي . . . هو اللازم الضروري الذي يتبع الحكم بتعدد الزوجات .

لكل زوجة ليلة ينفرد لها الزوج ، فإذا كان المباح في الدين أربع نساء كان دور القسمة بينهم أربع ليال .

لكل زوجة ليلة ينفرد لها الزوج ، وتختص بالمتعة ، حتى لا تشعر فيها بشركة ولا تحس بمزاحم ، وحتى كأنها الزوجة الوحيدة ، وكأنه الزوج المختص .

لا معدل عن هذا الحكم للدين الذي لا يهمل خفية ولا يغفل ظاهرة ، والذي يتوخى الاصلاح في كل تشريع ويرتبط بالعدل في كل نظرة .

لا معدى عن هذا الحكم لهذا الدين ، ولا معدى عن هذا الحكم للعقل أيضاً حين يزن الحوادث ويقدر الملابسات ويلتفت إلى الضرورات . ليلة من أربع لكل زوجة من أربع ، هي حقها العادل الذي لا تزاحم فيه ، ولا سلطان حتى للزوج على إسقاطه ولا تبديله ، لا سلطان لأحد من الناس سواها .

هذا هو حكم القسم الذي وضعه الإسلام لما أباح التعدد ، ليس معناه أن الأنثى تعادل ربع إنسان ، بل هو

تعيين لحقها بين ضرائرها من النساء .

وحكم الإسلام هذا مطلق ليس فيه تقييد ، لكل زوجة ليلة من أربع ، حتى إذا انفردت بالزوج ولم تشاركها في صلته زوجة أخرى .

نعم حتى الزوجة الواحدة لا حق لها في أكثر من ليلة واحدة من أربع ، لأن الإسلام لا يريد أن يتناقض ، ولا يريد أن يحيف .

كيف يجعل للزوجة حقاً في أكثر من ليلة وهو يبيح التعدد ؟ فإذا جمع الرجل بعد ذلك بين ثلاث نسوة أو أربع ، فماذا يصنع الإسلام ؟ أيمضي حكمه السابق فيخصص الزوجة الأولى بحقوق لا يستطيع أن يقررها للأخيرة ؟ أم ينسخه إلى حكم جديد ينصف فيه الثانية ولكن بأسقاط شيء من حقوق الأولى ؟

كلاهما تشريع غبي لا يرتضيه الإسلام .

لا يرتضي الإسلام أن يدلل الأولى فيحيف بالقسمة على الثانية ، ولا يرتضي أن ينصف الأخيرة فينقص من حقوق الأولى .

يريد الإسلام تشريعاً يضمن للزوجة الأولى حقوقها كاملة غير منقوصة ، ويثبت للزوجة الأخيرة ما

يساوي تلك الحقوق من غير نقص في جهة ، ولا حيف على ناحية ، وهذه خصائص لا تجتمع بغير التشريع المتقدم .

شبهة السؤال :

وهنا يأتي دور الشبهة التي سأل عنها الصديق العزيز ، والتي ذكرناها نحن في مستهل الحديث .

كيف ساغ لنبي الإسلام أن يخالف حكم دينه فيجمع بين تسع نساء على أقل رواية يذكرها المؤرخون ؟

وهنا يبرز المبشرون والمستشرقون صدورهم ، ويرفعون رؤوسهم ، يحسبون انهم بلغوا من الإسلام ومن نبيه (ص) كل مبلغ . . .

ماذا حدث ؟

لقد ناقض محمد نفسه ، وهدم أساسه بيده « يقول في تشريعه : لا يجمع رجل بين أكثر من أربع حرائر إذا استطاع العدل ، ثم يجمع هو بين تسع منهن حتى يموت ؟ ؟ فأي تناقض هذا ؟ ؟ ثم يتريثون قليلاً ليمكنوا السهم من المرمى ، ويقولون : تسع نسوة يجمع بينهن محمد على أقل رواية ؟ ؟

ماذا يدل عليه هذا العدد ؟ ؟

إنـه يدل عـلى رجـل شهـوة ، لا عـلى رجـل نبوة . . . ! !

نعم . هنا يتبجح المبشرون والمستشرقون ، ولست أعني جميع المستشرقين ، فإن منهم العلماء الذين صانوا في محمد (ص) ذمة التأريخ ، وحفظوا في دينه أمانة الحق .

أنا لا أقصد هؤلاء ، ولكن أقصد الآخرين الذين تحدوهم صناعة التبشير على الاستشراق ، ويدعوهم كامن الحقد إلى الخيانة ، والعلم ليس في ضرورة إلى البهتان ، ولكن الضغائن في حاجة إلى التنفيس .

مختصات الرسول (ص) :

يذكر المؤرخون والمفسرون والفقهاء وعلماء الحديث أن للرسول (ص) مستثينات يختص بها دون الأمة ، وأن في عداد هذه المستثنيات إباحة أي عدد من الزوجات ، وقد دل القرآن على شطر من هـذه المستثنيات التي يذكرون .

نعم . القرآن ، المعجزة العظمى الخالدة ، التي اخرست كل بليغ في القول ، وأفحمت كـل مجادل بالحجة ، وبهرت كل مفكر وفيلسوف بالحكمة ، ثم لا تزال معجزة باقية خالدة تخرس كل بليغ ، وتتحدى

كل مجادل ، وتفحم كل حكيم ، هذه المعجزة الدامغة التي دل قصور البشر عن مجاراتها على أنها من قول الله لا من قول إنسان ، ومن حكمة الله لا من فلسفة محدودة ، هي التي صدقت محمداً (ص) في كل دور ، وأثبتت نبوته لأهل كل عصر ، وهي بذاتها هي التي خصت محمداً (ص) بهذه المميزات ، فأي ريب فيها وأي نقاش ؟ .

القرآن . الدليل القاطع الذي لا يقبل الشك في صدقه ، والبرهان المنير الذي يثبت ذاته بذاته ، ويثبت كل بند من بنوده وكل محتوي من محتوياته ، فإذا كانت هذه المستثنيات التي ذكرت للرسول (ص) قد احتواها القرآن كانت ثابتة بلا ريب ولا نقاش وماذا بعد الحق لك الضلال . ومن أصدق من الله قيلاً . ومن أصدق من الله حديثاً .

والعظماء من البشر في كل دور من أدوار التاريخ ، وعند أية أمة من الأمم ـ حتى عند أقوى الناس تمسكاً بمبدأ المساواة ـ يتمتعون بأحكام خاصة ، تفرضها ملابساتهم الخاصة ، نعم . وهذا هو الشيء الطبيعي للدين وللقانون ، هو الشيء الطبيعي لهما ما داما يفيمان أحكامهما على واقع الحياة ، وللعظيم في الحياة أفق هو أسمى من الحياة العامة ، ولا بد أن يرعى ذلك مؤسس

الدين ومشرع القانون ، لا بد لهما أن يلاحظا هـذا التفاوت البعيد ، لأن إهمال ذلك يثمر هبوطاً بمستوى العظيم ، أو نشوزاً بمركز العامة ، وكلا هذين إسقاط لمعنوية التشريع .

وقوانين الدنيا كافة تحتوي على مواد تصون الرئيس الأعلى بما لا تصون به أحداً من الرعية ، وتميزه بأشياء لا تثبتها لعامة الأمة ، وقد تتجاوز الرئيس الأعلى إلى من دونـه من الوزراء والأكـابـر فتخصصهم بخصـائص وتؤثرهم بمميزات .

وحتى الطبيعة في قوانينها الثابتة التي وضعها الله لتنظيم الكون ، فإنها قد تجعل للعظماء خصائص تميزهم عن سائر الناس .

وقد يقول أحد أن خصائص العظماء من البشر لا ريب في إمكانها ، ولا مراء في صحتها إذا قام على وقوعها دليل مقبول ، وخصائص الرسول (ص) من تلك المستثنيات الثابتات ، ولا تعاش فيهـا من هذه الناحية ولكن :

أليس في تزوجه(ص)بأكثر من أربع حيف في حق النساء اللاتي أصبحن مورداً لهذا الاستثناء ؟

ووجاهة هذا القول تعتمد على كون المرأة ذات حق أصيل في هذا التزويج ، فلا بد من ضمان حقها فيه ولا بد من أحرار رضاها به .

ومعنى ذلك أن المرأة حتى اختارت أن تكون لها علاقة بالرسول (ص) وإن كانت شريكة مع أكثر من أربع فقد ضمن حقها ، والكثير بل الغالب من النساء السويات يفضان أن تكون لهن علاقة بالرجل العظيم ولو على نحو الشركة على علاقتهن بسواه منفردات .

فهل علمت أن عظيماً من العظماء ولد من غير أب ، وتكلم وهو طفل في المهد ، وأبرأ الأكمة والأبرص ، وأن عبقرياً من العباقرة وزن مخه بعد موته فكان على الضعف من سائر الناس ، وأن عظماء آخرين وكثيرين قد اختصوا بمميزات أخرى وكثيرة .

ولا أفيض في التدليل على ذلك ، ولكني أشير إلى وجهه من الصحة ، وإلى مكانه من قوانين الدنيا . وأية ضرورة إلى الغاضة في إقامة الحجج ، بعد أن كان الحديث عن خصائص محمد (ص) الذي قام البرهان على نبوته ، ونطقت الحجة بعصمته ، ومعنى ذلك أن كل ما ثبت أنه من أعماله فهو حق لا ريب فيه ، لأنه نبي ومعصوم ، أما الذين يرتابون في هذا أو في شيء منه

فعلينا أن ننظر معهم في أدلة النبوة والعصمة قبل هذا البحث . لأن الفرع لا يثبت قبل أصله .

وقبل أن أنهي الحديث في هذا الموضوع أود أن أقول : الحق أن كثيراً من هذه التي يقول كتاب السيرة انها من خصائص الرسول (ص) .

لا تتكىء على دعامة ثابتة ، ولا نثبت لنقد علمي ، والحق أن كثيراً منها أصبح سنداً لطعن الطاعنين ونقد الناقدين ، على أن شرف الرسالة أنصع جبيناً وأسمى مرتقى من أن تمس جانبه تلك الخصائص المشوهة ، أو هذه النقود المشينة .

وأنا لا أنكر ان فريقاً من مؤلفي السيرة النبوية كانوا حسني النيات فيما يدونون ، ولكن ثبوت الحق يفتقر إلى التنقيب العلمي وإلى حسن النية معاً ، بحيث لا غناء بأحدهما عن الآخر .

وأمانة العلم تفرض على الباحث أن يرتاب في كل خصَيصة من هذه الخصائص إذا لم تثبت بنص من الكتاب أو بثابت من السنة أو بقطعي من التاريخ .

أجل إن أمانة العلم تفرض على الباحث ذلك ما دام يعترف بأنها خصائص ، والخصائص استثناءات من القانون لا تثبت إلا بسلطان .

محمد والزواج :

أما النتيجة الثانية التي يخلص إليها الناقدون ، أما قولهم إن تسعاً من النساء يجمعهن زوج واحد يدل على أن هذا رجل شهوة لا رجل نبوة ، أما هذا القول فهو سوأة لا يليق أن يتجه إليها نظر ، أو يحفل بها كاتب ، لو لم تكن هذه السوأة بادية العوار .

لا يتزوج محمد (ص) إلا في الخامسة والعشرين من عمره ، ومحمد (ص) هو محمد في نضارة العود ، وسمو النفس ، وكرم الخلق ، وشرف الأرومة ، وعلو المنزلة ، ليس في العرب من لا يفخر بصهره ، وليس في النساء من لا ترغب بصلته ، ثم يتزوج إذ يتزوج امرأة تكبره بعديد من السنين .

شاب في عنفوان قوّته ، وفي ريق شبابه يتزوج أمرأة هي من أتراب أمه ، ويستمسك بعصمتها وحدها ما دامت حية حتى يبلغ الخمسين ، ثم يبني بعدها بزوجة أخرى تقاربها في السن ، وتقل عنها في الجمال ، وينفرد لها كذلك ثلاث سنين . . .

نعم . لم يتزوج النبي (ص) عائشة بنت أبي بكر الشابة الوضيئة إلا وهو ابن الثالثة والخمسين ، حين تسكن عادية الجنس ، وتقر فورة الشباب . أفهذه هي

سمات رجل الشهوة أيها الآفكون ؟ ؟

وحين تزوج محمد (ص) عائشة بنت أبي بكر ، وأم سلمــة بنت أبي أميـة ، وزينب بنت جحش ، ونظائرهن من جميلات نسائه فهل كان الدافع له على التزوج بهن هو سعار الغريزة ؟ .

لقد كان لمحمد (ص) في نشر الرسالة ، وتدبير الحكومة وترادف المغازي ، معالجة المشاكل شغل شاغل عن استثارة الجنس ، والانغماس في حمأته .

والمتدبر في سيرة الرسول يرى أن تزوجه (ص) بأكثر نسائه كان بدافع شد القبائل العربية إليه بالمصاهرة ليشد بهم أزر الرسالة ويقربهم إليه بالقلوب ويعدّهم لتحمل الأعباء .

والكثير من نسائه (ص) كن من الأيافي اللاتي فقدن الكافل ، فكان تزوجه اياهن عزاءً لهن عن النكبة وعوناً لهن على بؤس الزمان ، وأخذاً بيد المرأة المسلمة إلى التي هي أسمى ، وسنة حسنة بين المسلمين للاقتداء .

أما بعد كل ذلك فأي دليل في كثرة الزوجات على صحة ذلك النبز ؟ قد تكون كثرة الزوجاتِ دليلاً على قوة في غريزة الجنس ، ولكنها لا تدل أبداً على الانغماس

والاستهتار اللذين يقصدهما القائلون . . .

وأية غضاضة بالرجل العظيم أن يكون قوي الغريزة إذا لم يصرفه ذلك عن شؤون عظمته ، ومهمات أعماله ، وقد وجدنا في رجال النبوة من جمع بين أكثر من تسع ، وأكثر من تسعين . . .

تخيير النبي لأزواجه :

وفي السنة التاسعة من الهجرة نزلت على الرسول (ص) آيات التخيير من سورة الأحزاب : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً . »[١] .

خيرهن هذا التخيير الصريح الذي لا خفاء في أطرافه، ولا غموض في أهدافه ، قل لهن يضعن هذه الأشياء في ميزان المعادلة ويخترن ما أحببن فأنهن حرات في الارادة .

ليضعن الدنيا وما بها من زخرف ، وما في مظاهرها

---

(١) الأحزاب : ٢٨ .

من زينة ، وما يتبعها من لذات ومتع في كفة من الميزان ، ثم ليضعن الله ورسوله والدار الآخرة في الكفة الأخرى ، وليزن إذا شككن في الرجحان ، وليخترن غير مكرهات ولا مضطرات .

لهن أن يرجحن الكفة الأولى ، فيسرحهن الرسول (ص) سراحاً جميلاً ، ليتزوجن من شئن من الرجال ، وينصرفن إلى ما أحببن من اللذات ، لهن أن يؤثرن الدنيا فتفتح لهن أبواب الدنيا ، ثم لا تغلق دونهن أبواب الآخرة ، فهن كسائر المسلمات المؤمنات ، يعملن صالحاً فيلقين ثواب ما عملن ، أو يكتسبن إثماً فيجدن جزاء ما كسبن ، ولهن أن يرجحن الكفة الثانية فيمسك بعصمتهن الرسول (ص) ، ويعتصمن بحبل الله حين يتمسكن بهذه الصلة ، ويخلصن للحياة العليا حين يترفعن عن أعراض الحياة الدنيا .

لهن أن يؤثرن الله ورسوله والدار الآخرة ، فيضاعف للمطيعة منهن أجرها مرتين ، وتنال العاصية منهن عذابها ضعفين .

ثم إذا اخترن الله رسوله والدار الآخرة ، كان عليهن أن يقبلن أمومة المؤمنين ، فلا ينكحن بعد الرسول (ص) أحداً أبداً وأن يرضين حكمه في النفقة

وتعيينه في القسمة ، فله أن يفضل من يشاء في الأنفاق ، وأن يؤثر من يشاء في القسم ، ثم له الأمر قبل ذلك وبعده يرجى من يشاء منهن ويؤدي إليه من يشاء .

في السنة التاسعة خير الرسول (ص) أزواجه هذا التخيير الصريح فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة عن رغبة وطواعية ؛ والقرآن الكريم يصرح بهذا التخيير ، وكتب السيرة النبوية تشرح هذه القصة .

أما ما يعلقه المغرضون فهو شطط من القول .

يقولون : كيف يحرّم محمد أزواجه من بعده على الرجال ؟ . وهل يتفق هذا التحريم مع العصمة التي ينبثها المسلمون لمحمد ومع العدل الذي يدّعونه للإسلام ؟ كيف يتحكم على غرائزهن الجنسية هذا التحكم ، ويكبتهن من بعده هذا الكبت ؟ .

لم يحرم محمد (ص) الرجال على واحدة من نسائه أبداً ، ولكنهن آثرن ذلك عن رغبة واختيار ، ولم يحجر غرائزهن في نطاق ، وإنما دخلن فيه عن طواعيه ، ولكن المبشرين والمستشرقين يصورون الحوادث على ما يشتهون ، ليتم لهم القول كما يريدون .

النبي وزينب بنت جحش :

وأما قصة زينب بنت جحش ، وتزوج الرسول (ص) أياها ، فقد أطنب فيها المؤرخون من هؤلاء ، وألبسها الخياليون منهم بروداً مختلفة النسيج ، قد يطيلون فيها ، وقد يقصرون ، وليس يهمنا أن نعرض لهذا الخيال ، ولتلك الأساليب ، ولكن الذي يهمنا أن نتساءل :

من هي زينب بنت جحش ؟ .

وهل لها علاقة بالرسول (ص) قبل التزويج ؟ .

أهي غريبة عنه في النسب ، وبعيدة عنه في المسكن ، حتى أنه لم يتفق له أن يراها مدة حياته ، إلى أن تزوجها مولاه زيد ، وإلى أن مرّ بدار زيد في يوم من الأيام ، فلمح زينب هذه ... ووقع في غرامها . وانصرف مدهوشاً مما رأى وهو يردد : سبحان الله مصرف القلوب . ؟ ؟

يقول المؤرخون كافة : زينب بنت جحش أسدية وهاشمية ، أسدية من بني أسد بن خزيمة بن مدركة ، وهاشمية أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فهي إذن قريبة من الرسول (ص) جداً ، هي قريبة من الرسول لأنها تتحد مع نسبه الكريم في خزيمة بن مدركة ،

وهي قريبة منه لأنها ابنة عمته أميمة ، وكل هذا بإجماع المؤرخين .

ويقولون عنها أيضاً : إنها نشأت تحت رعاية النبي (ص) في التربية ، وتحت ظلاله في التوجيه .

ونتيجة قطعية لذلك أن الرسول (ص) أعرف الناس بهذه المرأة منذ طفولتها ، وأعلمهم بما لها من الجمال والفتنة إذا كانت ذات جمال وذات مفاتن ، ولقد كان التزوج بها ميسوراً له قبل زيد ، فهي لا تخالف له أمراً وأخوها عبد الله بن جحش قائد من قواده .

ثم هو الذي خطبها لمولاه زيد ، وأصر عليها وعلى أخيها بالقبول ، فلم يخالفا له أمراً ، فكان التزويج وكان البناء ، وقد أراد الرسول (ص) بهذا التزويج أن يهدم نعرة جاهلية كانت معروفة فبل الإسلام .

فقد كان الأشراف لا يصاهرون الموالي وإن كانوا عتقاء أو كانوا ذوي سابقة وجهاد ، وكان زيد مولى عتيقاً ، ومن أجل ذلك امتنعت زينب عن إجابته حين طلب يدها ، وامتنع أخوها عبد الله .

ولرفع هذه الفوارق ألح الرسول (ص) عليهما بالقبول ، فلم يخالفا له إرادة ، وكان التزويج وكان البناء . . .

إذن فواقع التاريخ وواقع القصة وواقع الملابسات كلها براهين قاطعة على إبطال ما يزعمه الـزاعمون وينسجه المتخيلون .

ذكر المؤرخون القصة . . . ولكن :

بلى . ذكر فريق من المؤرخين مرور النبي (ص) بدار زيد وإعجابه بزينب وقد رآها بادية المفاتن ، وقوله حين تولى عن الدار : سبحان الله مصرف القلوب . ذكر هذا فريق من المؤرخين والمفسرين . . . ، ولكن .

أيكون هذا بمجرده حجة على صحة الحديث ؟

ما أكثر ما يجنيه هؤلاء البسطاء المؤرخون أو المفسرون يستسمنون هزيلاً ، ويستقوون ضعيفاً ، ثم يحملونه على الدين حملاً ، وإن رفضته العقيدة ، وسخر منه البرهان ، ونباعد عنه الحق ، وما أكثر ما يقع هذا في ثنايا التاريخ والتفسير . . .

وقد قرأنا في كتب المؤرخين والمفسرين قصة الأخذ بالخناق ، والغط المهلك الذي لقيه الرسول (ص) في مفتتح الوحي ،وعند نزول أول آية من أعظم كتاب على أعظم رسول .

وقرأنا في كتب المؤرخين والمفسرين حديث ملكين ينفردان بمحمد (ص) ويشقان صدره بالسكين . ويستخرجان من فؤاده علقة سوداء ، هي مركز الشيطان من قلب الإنسان .

وقرأنا في كتب المؤرخين والمفسرين أساطير غير هاتين من الأساطير التي يحملونها على الدين ، ويقحمونها في التفسير ، فهل يريد الكتاب البسطاء منا أن يؤمن بأي شيء يذكره المؤرخون والمفسرون من غير تمحيص . ؟

هذه منزلة لم يطلبها حتى الدين لنفسه من الناس ، وقد سخر القرآن من إيمان الببغاوات الذين يسمعون فيحكمون من دون روية ، والقردة الذين يرون فيقلدون من غير تدبر .

ذكر فريق من المؤرخين والمفسرين تلك القصة ، ودون التصديق بها عقبات من العلم الصحيح وحواجز من العقيدة الثابتة ، ولولا مصادمتها لمقام النبوة لما استراح إليها الناقدون الحاقدون .

محمد (ص) بشر إلا أنه كامل البشرية ، وكمال البشرية ، معنى يتعالى عن هذه الرواسب التي تثقل ظهر الإنسان ما دام ممسكاً بالطين . . .

هكذا تقول العقيدة المستخلصة من صميم البرهان ونص القرآن ، وهكذا فهم الناقدون من البشرية الكاملة حين وجهوا هذا النقد على السيرة ، أما أن تفهم كاتبة مصرية مسلمة من بشريه محمد (ص) عين ما يفهمه الناس من بشرية عمر بن أبي ربيعة ، ثم تقول : ليس في قصة زينب ما ينقد ، ولا في مضمونها ما يريب ، أما هذا فلا يدخل في حسبان . ! !

على أن الكاتبة ليست غريبة في اعتماد هذا القول ، فهو رأي المفسرين والمؤرخين الذين أوردوا القصة ولم ينقدوها .

سبب زواج النبي من زينب :

تزوج زيد بن حارثة مولى خديجة ، وعتيق محمد (ص) بزينب بنت جحش القرشية الهاشمية ، قريبة الرسول (ص) وابنة عمته ، فكان هذا النكاح تأسيساً لقاعدة مهمة من قواعد الإسلام ، فالمؤمن كفؤ المؤمنة ، لا فرق بين دم ودم ، وعنصر وعنصر ، ولون ولون ، ولئن كان زيد مولى وعتيقاً ، فأنه من أولي السابقة في الإيمان ، ومن أهل البلاء في الجهاد ، ومن ذوي النصيحة للرسول (ص) .

ولكن الفوارق الجاهلية الموروثة لا تزال تعمل في نفس زينب ، وتصغر عندها من مقام زيد .

هب انها أطاعت الرسول (ص) فتزوجت زيداً ، فهل عليها أن تخضع له كما تخضع الزوجة المقاربة في الشرف أو الدنيا في المنزلة ؟ . أتخضع قريبة الرسول (ص) وحفيدة عبد المطلب بن هاشم لمولى من الموالي بيع بثمن ثم أعتق بمن ؟ ؟ وليكن هو زيداً في سابقته وجهاده ، هذا ما لا يمكن أن يحدث .

وكره زيد من زوجته هذا الترفع وهذا النفور ، فكتم حتى أعياه الكتمان ، ولاين حتى أعجزته الملاينة ، وشكى حتى أبرمته الشكاية ، وطال الشجار بين الزوجين ، ولم يعد زيد يطيق بقدر ما أطاق ، فكان النزاع الفاصل وكان الفراق .

وخلت زينب من الزوج بعد فراق زيد ، وأراد الإسلام أن يهدم قاعدة أخرى من قواعد الجاهلية ، فقد كانت العرب تعترف بالمتبنى أنه ابن يشارك للابن في جميع اللوازم ويعادله في كل الاحكام ، وهذا نسب لا يقرّ به الإسلام ، فالبنوة صلة واقعية للدين أن يتناول أسبابها بالتهذيب ، وليس للأهواء أن تمتد إليها بالتحكم ، أما المتبنى فهو دعى لصيق « وما جعل أدعياءكم

أبناءكم . »[1] .

« أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فأن لم تعلموا أباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم . »[2] .

نعم كانت العرب تدعو المتبني أبناً وتلحقه بالنسب ، وتعادل به الابن وقد تبنى الرسول (ص) زيداً حين تبرأ منه أبوه حارثة في قصة معروفة يذكرها المؤرخون ، تبناه لكيلا يشعر زيد بالبعد الذي تستشعره روح الغريب ، أو الذلة التي تعانيها نفس العتيق .

وإذن فليتزوج محمد (ص) زينب بعد أن قضى زيد منها وطراً ، ولتقم هذه المرأة الطاهرة بنقض قاعدتين من قواعد الجاهلية .

وقد سرد القرآن هذه الحوادث ، وأوضح هذه العلة ببيانه الأعلى ، وبأسلوبه المعجز ، أقرأت قوله تعالى من سورة الإحزاب : « فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها ، لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله

---

(١) الأحزاب : ٤ .

(٢) الأحزاب : ٥ .

مفعولاً »[1] هذه حقيقة القصة التي شوهها الحاقدون من حساد محمد (ص) .

أما بعد أيها الصديق الكريم ، فإنما هي جولة تأمل في أمور مسطورة لم أجهد بها فكراً ، ولم أكد في تهذيبها قريحة ، ولكنها طبيعة الدين توحي بالحق ، وطبيعة السيرة الطيبة تلهم الصواب ، وسيرة محمد (ص) ملتقى المشاعر العالية ، ودين محمد (ص) ينبوع المثل الكريمة .

والله تعالى أسأل أن يوفقني وإياك للأخذ بأوضح الطرق إلى أسمى الغايات .

وختاماً تقبل تحيات المخلص :

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

القِسمُ الثاني

الحلقة الثانية

سؤال :

إننا نعلم أن الإسلام قد نسخ الديانتين (المسيحية واليهودية) ومن هذا يتضح أنه لا حكم إلا للإسلام ، وأني كلما أقرأ الآيات المباركات التالية يتضح لي من سياقها بأنه يجب أن يحكم أهل الإنجيل بالإنجيل وأهل التوراة بالتوراة ، فأرجو بيان ما تؤدي إليه هذه الآيات المباركات ، وهل انها كما يتضح لي ؟ .

الآيات :

(١) « وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكمُ الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » .

(٢) إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكمُ بها النبّيون الذين أسلموا للذين هادو أو الربّانيون والأحبارُ بما

(المائدة : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧) .

استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

(٣) « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك همُ الفاسقون » .

جواب :

سؤالان حول هذه الآيات :

قد يتوجه حول هذه الآيات الكريمة سؤالان ، وكلاهما يفتقر إلى بسط ، وكلاهما يفتقر إلى جواب .

السؤال الأول : ما معنى أن يحكم أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الإنجيل بالانجيل بعد أن كانت أحكام هذين الكتابين منسوخة : وبعد أن أصبحت البشرية جميعاً مكلفة بإتباع القرآن وتطبيق إحكامه ؟ . (وهذا هو سؤالك أيها العزيز) .

السؤال الثاني : إن إتباع الكتابين الرائجين الموجودين بأيدي الناس يعتقدون بصحتهما ، وينكرون تطرف التحريف إليهما ، فإذا احتجّوا لإثبات قولهم بظواهر هذه الآيات فما يكون الجواب عن احتجاجهم هذا ؟ .

وكلا السؤالين ـ كما قلت ـ يفتقر إلى بسط في الجواب : وقد كانا موضوعاً لحديثي مع صديق كريم ، هل تسمح لي أن اقتطع لك بعض ذلك الحديث ؟ . . .

قلت في غضون رسالتي إليه :

القرآن والأديان السابقة :

ان القرآن يعترف بصواب أديان تقدّمت عليه ، وبصدق انبياء ، وصحة كتب ، وإن الإسلام يجعل هذا الأقرار جزءاً من عقيدته التي ينهض عليها بناء هيكله ، ويرتبط بها كل فرع من فروعه .

يعترف القرآن والإسلام بهذه الحقيقة ، ولا معدل لأي دين حقّ من أن يعترف بها ويرتكز كذلك عليها .

لا معدل لأديان السماء الصحيحة من أن يبشر الأول منها بالآخر ، ويعترف الآخر بالأول ، ويتناصر الجميع على بناء العقيدة العامة للإنسانية عامة ، عقيدة الإيمان بالله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، وتصديق انبيائه وكتبه من غير منهم ومن لحق .

لا بد من أن تمتد هذه الركيزة بين طبقات البشر جمعاء ، لتتحد في الاتجاه ثم لتتفق في الغاية .

وفي ظني أن هذه الحقيقة بادية المحاسن بينة الثبوت ، أما إذا اضطررتني إلى التدليل عليها فاستمع .

الدين لا بد أن يكون واحداً :

(١) ان الاستكمال ناموس عام شامل لكل موجود من موجودات هذا الكون .

(٢) ولكل نوع من الموجودات الكونية طريق واحد يرتقي به إلى كماله .

هاتان مقدمتان واضحتان ليس فيهما خفاء .

أليس من بدائه العقل ومن أوّليات العلم : ان كل كائن حادث يبدو ناقصاً ثم يسير متدرجاً في طريق الاستكمال ؟ .

أما الاستكمال في الإنسان فأنه غريزة وهوىً فيه كما هو ناموس واقعي أيضاً ، ولم يتردد في هذا ولم يرتب فيه عاقل من العقلاء ، والنتيجة المحترمة لذلك أن الكمال الأقصى غاية للإنسان . . .

غاية له من حيث أنه بعض موجودات الكون ، فلا مفر له من الخضوع لناموس الاستكمال الشامل لجميع موجودات الكون . . . وغاية له عن حيث أن الاستكمال هوى له وغريزة فلا مندوحة له من الاتجاه إليها .

ولكل نوع من أنواع الموجودات طريق معين واحد

يرتقي به إلى كماله الأعلى ، هذه هي المقدمة الثانية وهي أيضاً واضحة ليس فيها خفاء ، فهذه هي الخطة المتبعة في جميع الأشياء .

أنظر أي نوعٍ من الأنواعٍ التي تجدّ للاستكمال ، فهل تجد له طريقاً معيناً واحداً ينهج فيه ؟ ، ثم أنظر أيقوى الإنسان أن يستثني نفسه عن هذا القانون ؟ وضع نقطتين في أي موضع تختاره من الورقة ثم اجتهد أن تصل بينهما بخط مستقيم ، فهل يمكنك أن توجد بينهما أكثر من خط واحد ؟ .

طريق الكمال مستقيم ، لأن الكمال لا يتفق والعوج أبداً . . . وإذن فهو واحد ولا يمكن أن يتعدد .

ونتيجة لما تقدم ، فلا بد للإنسان من الكمال ، لأن الكمال هو الغاية العامة للأشياء وللإنسان .

وإذن ، فالإنسان مضطر إلى نهج يؤدي به إلى هذه الغاية . . . مضطر إلى دين .

وهذا النهج الذي يؤدي به إلى الغاية . . . وهذا الدين الذي يبلغ به إلى كماله الأعلى يجب أن يكون معنيّاً واحداً لا تعدد فيه لأن ذلك هو القاعدة العامة التي لا يفلت عنها أي موجود .

وإذن ، فهذا النهج الذي يؤدي بالإنسان إلى الغاية . . . وهذا الدين الذي يبلغ به إلى نصيبه الأعلى من الكمال يجب أن يكون عاماً للإنسانية [illegible] ، لأن الكمال الأعلى ليس حظاً يستأثر به فريق منها

وهذه حقائق استسلفها هنا مجملة فقد فصلتها في حديثي عن (الإسلام) [1] . وهي بذاتها أسس الوحدة الدينية التي يجب أن تكون ، وهي التي ربط الإسلام بها وحدة الإنسانية في الدين ، ووحدتها في المنهاج ، وكلها واضح لا ريب فيه ، ولا محيد عنه .

ومعنى ذلـك : إن دين الله واحد في الأولـين والآخرين ، على أسس واحدة يبتني ، ومن نبع واحد يستمدّ وفي مجرى واحد يجري ، ثم إلى غاية واحدة ينتهي : وما شرائع الله التي بشّرها الأنبياء الا قطعات متلاحقة يتكون من مجموعها ذلك الخط الواحد الممتد المستقيم . واقرأ معي ـ إن شئت ـ هذه الآيات الكريمة فانها تلمّ بأكثر هذه الحقائق :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ

---

(١) انظر البحوث الأولى من فصل (الدين في ينـابيعه الأولى) والبحوث الأولى من فصل (موازين ونتائج) ، من كتاب : الاسلام ـ ينابيعه ، مناهجه ، غاياته .

وحكمةٍ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إجرى ؟ ، قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ . قل : آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [1] .

نعم ، هكذا يجب أن تكون شرائع السماء موصولة المقدّم بالتالي ، موحدة المبدأ والغاية ، هذا هو حكم الفطرة الذي لا عوج فيه ، وهذه هي نظرة الإسلام التي لا شذوذ فيها ، وما في القرآن من آية تدل على صدق نبيّ أو كتاب أو شريعة فهذا هو مساقها ، وما في أديان الله الأولى من بشارة برسول أو دين مستقبل فهذا هو مرماها .

---

(١) آل عمران : ٨١ ـ ٨٥ .

تفاوت الشرائع السماوية :

وتفاوت بعض هذه الشرائع عن بعض إنما هو بحسب تطور النوع البشري في الاجتماع ، وارتفاع أجياله في مراتب الإدراك . والتطور في الاجتماع وفي الإدراك مما لا مساغ لنكرانه ولا مساغ لإغفاله ، والأمور التي فرضت وجود الدين في أصله تفرض ذاتها ـ مطابقته لهذا التطور ، ولنفرض المجتمع كالإنسان الفرد في أطوراه كما يقول الاجتماعيون فهل يسوغ للمربي أن يطبّق في دور الحضانة ذات المنهاج الذي أعدّه لدور النضوج ؟ ! .

ضروري أن تتعدد المناهج ، وضروريّ كذلك أن يكون كلٌ واحد منها هو المنهاج الكامل في دوره .

وهذه بذاتها هي أدوار الأديان ، منهاج يؤهّل لمنهاج ، وتربية تمهّد لتربية ، وكل دين تلحظه منا على الخصوص فأنه الطريق المضمون المأمون لأهل دوره من الاجتماع ، الطريق المضمون لهم إلى كمالهم الأقصى ، والمجتمع البشري المتطور هو الموضع لهذه العناية الدائمة المتصلة من الله العزيز الحكيم .

ولا بد للدين الأول أن يهذب الإنسان من كل جهاته لا من ناحية جسده فقط ، ولا من ناحية روحه فحسب ، ولكن تهذيبه بمقدار ما تأهبّت له طبيعة الإنسان

وهو في دور الطفولة ، ولا بد للدين الثاني أن يهذّبه من كل جهاته كذلك لا أن تهذيبه بمجال أرقى ، وهكذا يرتقي الإنسان ويرتقي معه التهذيب حتى يبلغ دور النضوج ، فيوضع له عند ذاك المنهاج الدائم للنضوج الدائم .

هكذا تتابع الشرائع فينتهي السابق منها لانتهاء دوره ، وهذا معنى النسخ في الأديان .

لقد نسخت التوراة ، ونسخ الإنجيل ، وأصبحت البشرية رهينة باتّباع القرآن . . . باتّباع المنهج الخالد للشريعة الخالدة .

الإسلام واتباع الكتابين :

ولكن التسامح واليسر الذي عرفت به شريعة الإسلام ؟ . . .

من أتباع الكتابين من تصدّه الإلفة والعادة عن اتباع الدعوة الجديدة (دعوة الإسلام) فيصّر على التمسك بالكتابين : يحق ما أحقا ، ويبطل ما أبطلا ، ويجري حيثما جريا ، ثم لا يبتغي الكيد للدعوة الجديدة ، ولا يريد بأهلها ولا بأتباعها سوءاً . فهل يقرنه يسر الإسلام بالملحد الذي لا ينتهج ديناً ، أو بالمشرك الذي

لا يهتدي سبيلا ؟ ! .

من أجل ذلك رخص الإسلام لمثل هذا أن يستمسك بدينه ويحكم بكتابه على شروط يجب عليه أن يقوم بها .

وسبيل هذا سبيل من أصّر بعد الكمال والنضوج على أن يلتزم بمناهج التربية التي قدمت له في دور المراهقة أو دور الطفولة ، يجدد بالمربّي أن يقبل ذلك منه ولو موقتاً ريثما تنكشف له الحال ، وهو على أي حال خير ممن رفض المناهج ، وتمرد على المربّي .

على أن التوراة والإنجيل ذاتهما كفيلان بهدايته للدعوة الجديدة إذا هو نظر فيهما النظرة المجردة ، وحكم على وفقهما الحكم الصحيح ، فهي إذن دعوة إلى الإسلام بطريق حكيم .

احتجاج الكتابين بالآيات على صحة كتبهم :

أما السؤال الثاني : أما احتجاج الكتابين بظواهر هذه الآيات على صحة كتبهم الموجودة بأيديهم وعلى عدم تطرق التحريف إليها ، أما هذا فأي حق لهم فيه ؟ .

يعترف القرآن بصدق أديان ، وبصحة كتب ،

وتقديس أنبياء أنزلت عليهم . ويأمر أتباعه بالإيمان بذلك ، وأن لا يفرّقوا بين أحد من رسله ، وقد أثبتنا فيما تقدم مدى تصديقه وتحدثنا عن سر ذلك ، ولكن ما صلة ذلك بهذه الأشباح القلقة الباهتة التي تنسبها أوهام أهل الأرض إلى تشريع السماء ، وهذه الأقوال الخرفة النابية التي تصيفها متقوّلة الناس إلى وحي الله ؟ .

يعترف القرآن بصدق التوراة وبصحة الإنجيل ، ويقول عنهما كما يقول عن نفسه : إنهما هدى ونور ورحمة . إلا أنه يقول كذلك بصريح القول عن هذه التي بأيدي الناس أنها بمجموعها ليست بتوراة ولا إنجيل .

انه تقول عن أهل الكتاب وعن أديانهم الموجودة وكتبهم الرائجة : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون) [١] .

ويقول في آية أخرى : (افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) [٢] ويكرر هذا في كثير من

---

(١) البقرة : ٧٩ .

(٢) البقرة : ٧٥ .

آياته .

أما الآيات الكريمة التي دار حولها السؤال . . . أما قوله تعالى : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يقولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) فهذه تسلية من الله لرسوله عن تمرد اليهود على حكمه ، يقول له : أن اليهود شديدون في عتوّهم ، عنيدون في تعصبّهم . فلا يحزننك شيء من أمرهم أنهم لم يخضعوا لحكم الله الذي أنزله في التوراة ـ على أنهم معترفون بهذا الكتاب معترفون بهذا الحكم ـ فكيف يؤمل منهم أن يخضعوا لحكمك ولكتابك ؟ ! .

وأما قوله تعالى : (إذا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا . . .) وقوله تعالى : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أما هاتان الآيتان وما أشبههما، فأنها اعتراف بالتوراة والإنجيل لا بكل كتاب يسميه الناس بهذين الإسمين الكريمين .

على أن القرآن لا ينكر أن بأيدي الناس بقايا من كتب الله الصحيحة ، وهذه البقايا هي التي ردهم إلى شهادتها عند الاحتجاج ، وهي التي فرض عليهم أن يتحاكموا إليها عند التخاصم ، ولكن بماذا تفي هذه

البقايا بعد اختفاء الكثير ، وبعد امتداد الأيدي إلى الموجود منها بالتحريف : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير) [1] .

وأقوى ما لهم في الآية الأولى إنها قالت : (وعندهم التوراة) فكأنها قالت : وعندهم جميع ما أنزل الله في هذا الكتاب ، غير محرف ولا منقوص ! !

إن القرآن يوضح مراده من هذه الكلمة في إيات أخرى ، إذ يقول في واحدة (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . . .) [2]

وإذ يقول في ثانية (وإن منهم لفريقاً يلوُن ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) [3] فأي وجه للاحتجاج يبقى لهم بعد ذلك ؟ .

---

(١) المائدة : ١٥

(٢) الانعام : ٩١ .

(٣) آل عمران : ٧٨ .

سؤال :

نقرأ كثيراً من آيات القرآن الكريم التي تشير إلى وجود الشيطان وعمله على إغواء الناس والأخذ بأيديهم إلى سبل الضلال .

وقد قرأت في كتاب (هذا . . . أو الطوفان) للأستاذ خالد محمد خالد ، في الفصل الأول منه بحثاً مفصلاً ينفي فيه وجود الشيطان ، وكانت أولته في ذلك : (إن الإنسان في هذه الحالة يجب أن لا يحاسب على أعماله السيئة لأن الشيطان يدفعه إلى القيام بها) .

(وأن قيل : إن للإنسان إرادة تمنعه من طاعة الشيطان فان بعض الناس لا يملكون إرادة قويّة تمكنهم من ذلك لضعف نفوسهم ، وتقويّة النفوس أمر لا يتعلق بالإنسان بل يتصل بالمحيط الذي يعيشه والجو الذي يكتنفه ، ومدى التوجيه والأرشاد الذي يتلقاه ، وبهذا لا يكون الإنسان مسؤولاً عن الأعمال القبيحة لأنه يفقد الإرادة التي تدفعه إلى معصية . . .

وبهذا يصبح ضعاف الإرادة أول الداخلين إلى النار .) فما الرد على هذا الادعاء . . . ؟ .

جواب :

القرآن وإبليس :

في الكتاب الكريم إحدى عشرة آية تذكر اسم (إبليس) ، وفيه بضع وسبعون آية تذكر كلمة (الشيطان) أو كلمة (الشياطين) وفيه ثلاث وثلاثون آية تذكر لفظة (الجن) أو (الجان) أو (الجِنّة) ، وفيه إعداد أخر من الآيات تذكر لنا بعض أوصاف هذه الكائنات ، وتشير إلى بعض طباعهم وأعمالهم ، وتذكر بعض أقوالهم وقصصهم ومعتقداتهم ، وتعرّفنا ان إبليس كان من الجن ، وأن الجان مخلوق من مارج من نار ، وتشرح لنا حديثه مع البشري الأول ، وتسجل على إبليس ارتكابه الخطيئة الأولى ، واستكباره عن أمر ربه ، ومجاهرته إياه بالمعصية وبالإصرار عليها ، واستحقاقه ـ من أجل ذلك ـ الطرد والرجم ، واللعنة إلى يوم الدين .

ونتلو في القرآن آيات وافرة العدد متنوعة الأساليب تحذرنا فتنته وإغوائه وتخوفنا الوقوع في حبائله والتردي في مضلاته ، وتعرفنا أن له قبيلاً وجنوداً وذرية ، وتخوفنا

طرائقهم ومزالقهم . . . تشرح لنا ذلك كله بوجوه مشرقة الدلالة وبنصوص لا تقبل التأويل .

ونلاحظ ان القرآن يسميه (إبليس) في كل موضع يريد التعريف به بذاته كما يعرف الأشخاص الآخرين بذكر اسمائهم التي تختص بهم :

في كل موضع يتعلق الفرض القرآني بذكر هذا الكائن بما هو شخص معيّن ، له مجموعة سماته ، وله سلسلة تاريخه .

ويسميه (الشيطان) في كل موضع تكون الصفة الغالبة عليه هي صفة الإغواء والأغراء :

في كل موضع يتعلق الفرض القرآني بتصويره مضلاً مغوياً يضع خططه ، ويحوك أحابيله ، ويبتكر طرائقه لإغواء الناس ، وأضلالهم وصرفهم عن الحق ، وإبعادهم عن الخير . . . في كل موضع يتعلق الفرض القرآني بتصويره كذلك ليحذره الناس ويتقوا فتنته .

تأويل لا مبرر له :

نتلو ذلك في آيات الكتاب ونقرأه في أحاديث الرسول (ص) مما ثبت بجميع طرق المسلمين ، ولم

يشك في صحته ولا في دلالته أحد يعرف باستقامة الذهن منهم .

ويقرأ معنا هذه الآيات ، وهذه الأحاديث بعض الكتاب من المسلمين .

بعض الكتّاب ممن ينتسبون إلى الإسلام ، ويلهجون بإسمه ، ويدّعون الفهم لحقائقه ، والوقوف على اسراره .

يقرأ هذا الفريق من الناس معنا تلك النصوص ، فيأبى عليها أن تفهم معانيها ! ! . ويصر إلا أن يؤوّل : وإلا أن يغرب في التأويل ! .

لماذا ؟ .

لا لشيء صحيح يقتضي ذلك ، سوى أنه لا يرغب أن تكون تلك هي المعاني المقصودة في القرآن والأحاديث .

ويبدو أن الوجه في هذه الرغبة العارمة التي تخامر بعض هؤلاء الكتّاب وتتحرف بهم عن الفهم السوي للنصوص هو أن فرض إبليس كائناً واقعياً متميزاً له وجوده الخاص ومشخصاته المعنية مما لا يتفق والنظرة المادية الخالصة التي جرت عليها الفلسفة الوضعية في

تحديد مفاهيمها ، وبنى عليها الفلاسفة الوضعيون نظرياتهم واحكامهم في الكون والحياة والإنسان وفي ما وراء ذلك من الأمور المتصورة .

ليس وراء الحس معرفة ، وليس وراء المادة المحسوسة واقع .

وإبليس ليس مما يقع عليه الحس ، فليس له وجود ، فإذا دلت الآيات والأحاديث على وجوده فلا محيد من أن يكون ذلك على ضرب من التأويل .

والسؤال الذي يجب أن يفكر فيه ويجاب عنه هو : ان المسلم كيف يمكن له أن يحتفظ بإسلامه مع إيمانه بهذه النظرة المادية كل الإيمان .

إذا هو آمن بأن كل ما وراء الحس وما وراء المادة وهم وخداع ؟ ! .

والذي لا يمتري فيه أحد من الناس : إن الفلسفة الوضعية إنما الحدث لما تأصلت فيها هذه النظرة ، وأن الغرب ومن يسير في ركابه إنما طغت عليه موجة الإلحاد لما انتشرت في ربوعه هذه الفلسفة .

والأستاذ خالد محمد خالد قوي الإيمان بالعلم ، وأثر إيمانه هذا جلّي في كتابه الذي ذكره السائل وأشار إلى

بعض محتوياته ، ولا يلام الأستاذ على إيمـانه القـوي بالعلم ، فهذا ما ينتظر من كل كاتب متحرر .

ولكنه يؤخذ إذا أعطى العلم ما لا يدعيه العلم لنفسه . . .

إذا خرج بالعلم عن ميادينه ، فأراد أن ينكر ـ بإسم العلم ـ وجود ما وراء المادة ، لأنه لا يحس ولا تبلغه الآلة . ولا تقع عليه التجربة .

وهذه ليست قوله العلم وإنما هي النظرة المادية التي تحدثنا عنها من قبل ، وقلنا : إنها فتحت باب الإلحاد ، وفارق كبير جداً بين النظرتين :

بـين نظرة العلم ، فـلا يعتمد إلا عـلى الحس وإلا على التجربـة في حدود المـادة ، ونظرة الفلسفـة الوضعية ، فلا وجود لما وراء المادة لأنه غير محسوس وأنا لا اتهم الأستاذ بالحاد ، ولكنها مزالق الفكر البشري إذا حاول أن ينطلق إلى غير حدود .

والدين لدى بعض الكتّاب لا يعدو أن يكون دعوة أصلاحية موجهة ، والعقائد والرسوم التي يحتوي عليها الدين إنما هي وسيلة لتثبيت تلك الدعوة ، ولا ضرورة ـ في رأيهم ـ إلى نبذها ما دامت كذلك ، وأن أعوزها السند

العلمي على ما يعتقدون .

أما المناهج الإصلاحية فيه فلا بد من إدخال التعديل عليها ، سواء أمكن التأويل في نصوصها أم لم يمكن .

وميزة الإسلام - في آرائهم - : أنه الدين الذي تقبل نصوصه التأويل ، وهذه هي مرونة الإسلام على ما يفهمون ، أليست مرونة الطين مثلاً أنه طبع يقبل التحوير إلى أي صورة يريدها الجاعل ؟ ! .

أنا لا اتهم الأستاذ خالداً بالحاد أو مروق عن الدين - كما اتهمه كتاب تصدوا للرد على بعض أرائه - ولكنه فكر حادّ ، ظن من نفسه العبقرية ، فوثب حيث لا يحمد الوثوب ، وأمثل العواقب لمن يثب على غير قوة وعلى غير اهبة أن ينتكس على أم رأسه .

لا . ليس الأستاذ خالد ممن ينكر ما وراء الحس ، وليست النظرة المادية هي التي دفعت به إلى انكار وجود الشيطان ، وهو يعترف في كتابه (هذا . . . أو الطوفان) وفي فصله الأول من هذا الكتاب وفي بحثه الذي عقده لإنكار الشياطين ، من ذلك الفصل . . . يعترف بأن وجود الشيطان - لو كان له وجود - فهو وجود مادي .

وإذن فلماذا أنكره ؟ وأي حجة استطاع أن يدعم بها هذا الرأي ، أو بالأحرى هذا التحريف الشائن لمعاني كتاب الله العظيم ؟ ! .

خالد محمد خالد والشيطان :

ان الأستاذ يرى ـ ولتكن الحجة بعبارته نفسه ـ : (إن الإيمان بوجود قوة مستقلة عنا تحمل هذا الإسم (اسم الشيطان) ولها سلطان علينا تدفعنا به إلى الغواية والاثم ، لأكبر معطل للنمو الخلقي الذي يستمد فاعليته من الشعور الأكيد بمسؤوليتنا الكاملة عن اكتمالنا ـ هذه المسؤولية التي تقوم على أساس وطيد من الحرية والإرادة والاختيار) .

هكذا يقول ، ثم يمضي يدلل في أكثر كلامه على أن تدخل الشيطان في عمل الإنسان يجعله مسلوب الاختيار ، مغلوباً على أمره ، ونتيجة لذلك فيجب أن لا يؤاخذ الإنسان بشرٍّ يأتيه أبداً .

سلطان الشيطان على الإرادة :

وموطن الضعف في دليله هذا : انه افترض للشيطان هذه السيطرة القوية التي تدفع بالإنسان دفعاً إلى

الإثم وتغلب إرادته واختياره ، ولقد عرّف القرآن بهذه السيطرة ، وأوضح حدودها ، وبيّن مداها فقال في الآية (٢٢) من سورة إبراهيم : (وقال الشيطان لما قضى الأمر : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ . . .) ، والآية واضحة المعنى حسب ما اعتقد .

وإذن فسلطان الشيطان إنما هو دعوة وتزيين ووعود وأماني وإغواء وأغراء : (دعوتكم فاستجبتم لي) ولا شيء غير ذلك . ولا سبيل له أبداً على الإرادة ، ولا سلطان مطلقاً على الاختيار ، ولا تأثير بوجه على المسؤولية الذاتية : (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) .

وهذا سلطان تعود قوته وضعفه ، بل ووجوده وعدمه إلى اختيار الإنسان ذاته ، فان اعتياد الخضوع لدعوته والانخداع لوعوده مما يزيده طمعاً ويكسب إرادة الإنسان أمامه ضعفاً ، والترفع عنه وعن مخادعه ومضلاته مما يوهن كيده ، ويعصم الإنسان منه ، وإقرأ ـ إذا شئت ـ قوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا

وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) [1] .

وحتى إذا انخدع المؤمن يوماً واستبان عليه الضعف وكاد أن يقع في الحبائل اتصلت بقلبه نبضة من نبضات الإيمان فنبهته للخدعة وأمدته بالقوة وتداركته من السقطة ، (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وأخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) [2] .

أرأيت كيف يقوى سلطانه على ابن آدم وكيف يضعف ، بل وكيف يوجد وكيف يعدم ، واختيار الإنسان ذاته هو السبب في كل أولئك ؟ وعلى أي حال فاختيار الإنسان هو اختياره ، ومسؤوليته الكاملة هي مسؤوليته ، لم تنقص شيئاً ولم تتأثر بشيء .

ثم أرأيت الأستاذ خالداً كيف يثب حيث لا يحمد الوثوب لينتكس هادياً حيث لا مناص من النكسة .

---

(١) النحل : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(٢) الاعراف : ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

وقوله أخرى يقولها في كتابه ، ولعله يعتبرها حجة ثانية على ما يرى . . .

وهو يمهد لهذا القول بنفي وجود شر بالمعنى المعروف ، وكان عليه بمقتضى قياسه أن ينفي وجود الخير كذلك ، فليس هنا خير ولا شر بالمعنى المعروف ، وإنما هي أمور نسبية ، فيكون الخير لفرد من الناس شراً لفرد آخر يعيش في مجتمع آخر ، أو في زمان آخر ، أو في أحوال وملابسات أخرى ، في عين ذلك المجتمع والزمان الأول ، بل وقد يكون الخيرلفرد شراً لذلك الفرد نفسه عند اختلاف ظروفه وملابساته ، ولست ابتغي هنا أن أحاسبه على كل ما يقول .

وبعد هذا التمهيد قال : (والآن نسأل سؤالاً : إذا كان هناك شيطان مادّي ينشر الرذيلة ويحمي حماها ، أفما كان من المحتوم أن تكون الرذائل واحدة في كل زمانٍ ومكان ؟) .

ونحن بدورنا نسأل سؤالاً كذلك :

إذا كان ما ذكره الأستاذ كله مسلماً لا جدال فيه : إذا لم يكن للشر والرذيلة وجود حقيقي دائم بل كان من

الأمور الاضافية ، وإذا كان الحكم بكون العمل شراً أو رذيلة إنما يعود إلى مواضعات العرف وتقاليد المجتمع ، وإذا كان الشيطان ـ ولنفرضه واحداً ـ هو المعني بنشر الرذيلة وحفظ حماها .

إذا سلمنا بكل ذلك للأستاذ ، فلماذا يتحتم علينا أن نفرض الشيطان غبياً لا يعرف المواضعات والتقاليد لتكون الأعمال التي يأمر بها واحدة في كل زمانٍ ومكان ، وليصبح الشيطان آخر الأمر من دعاة الفضيلة عند بعض المجتمعات وأن كانت معدودة من الرذائل عند مجتمع آخر .

ما القلب هو اداة التفكير :

وأخيراً يقف الأستاذ على القلب ، وهو مسكن الشيطان ، كما عبّر في بعض الأحاديث ، وفي القرآن ذكر (الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس) ، وقف من هذا القلب موقف المرتاب حتى كاد ينكر وجوده باسم العلم أيضاً . كما أنكر وجود الشيطان . ووجود الشر باسم العلم ، ثم فسره آخر الأمر تفسيراً رمزياً بأنه الاندفاع ؟ ! . ولست أعرف على وجه التحقيق العوامل التي تدفع به إلى هذه التمحلات ! ! .

والقلب في أكثر مواقع استعماله في القرآن يعني اداة التفكير في الإنسان واقرأ للتدليل على صدق ذلك هذه الآيات :

(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . . . ؟) [1] ، ولقد ذر أنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها . . .) [2] ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها . . . ؟) [3] . (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين) [4] .

أسمعت ؟ ان القلب هو الاداة التي بها يعقل الإنسان ويفقه ويتدبر ، وهو الجهاز الذي يتلقى العلم والوحي ، أفليس معنى ذلك ان القرآن يعني بالقلب اداة التفكير في الإنسان ؟ وذلك أحد معاني كلمة (القلب) في اللغة أيضاً ، والحديث الشريف إنما يجري في ركاب القرآن ، وقد اشرت إلى هذا في كتابي (رسالات السماء) .

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) محمد : ٢٤ .

(٣) الاعراف : ١٧٩ .

(٤) الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٤ .

وكل عمل اختياري يكسبه الإنسان سواء أكان خيراً أم شراً ، وفضيلة كان أم رذيلة ، لا بد وأن يكون صدوره عن الإنسان بالارادة ، وهو معنى كون العمل اختيارياً ، وهذا بدهي للغاية .

وإرادة الإنسان لا يمكن أن تتعلق بالعمل ـ أي عمل ـ إلا بعد أن يتصوره الإنسان ويفكر فيه وفي الدوافع التي تدعوا إلى الاتيان به ، وهذا بدهي للغاية كذلك .

موضع تدخل الشيطان :

نعم ، وهذا هو موضع تدخل الشيطان في الأمر إذا كان العمل شراً ، وكانت الصنعة رذيلة .

يتدخل ما استطاع ، فيغري ، ويخادع ، ويكيد ، ويفتن في الأغراء والمخادعة والكيد ، ويقترب من القلب يوسوس فيه ـ ألم نقل : ان القلب في القرآن والحديث يعني اداة التفكير ـ يوسوس فيه ، ويجهد في فتنته ، ليكسب الفكر ، ثم يكسب الإرادة ، ويحقق الشر والرذيلة التي يبتغيها .

ومعنى آخر لوسوسته في القلب . ان الشيطان في أنجح سبله ، وأجدى وسائله إنما يأتي الإنسان من قبل

عواطفه ورغباته وميوله ، فهو يتملق العاطفة ويداعب الميول ويمنّي الرغبات ، ويحرك الانفعالات ليهوي بالإنسان إلى البؤرة التي يريد ، ومرد هذه الأمور إلى القلب على الأكثر .

هذه هي الوجوه التي تعلق بها الأستاذ خالد لينكر وجود الشيطان ، وهذه هي قيمتها لدى التمحيص .

قلت : ان سلطان الشيطان على ابن آدم يقوى ويضعف ، بل ويوجد ويعدم ، واختيار الإنسان ذاته هو السبب في ذلك ، وعلى أي حال تكون تلك السيطرة ، فان اختيار الإنسان هو اختياره ومسؤوليته الكاملة هي مسؤوليته لا تنقص بذلك ولا تتأثر .

المؤثرات الأخرى على الإنسان :

أما المؤثرات الأخرى التي تحيط بالإنسان ، والتي أشير إليها في السؤال ، أما المجتمع والبيئة والبيت والمدرسة، فلايجحدان لها تأثيراً بالغاً في تكوين الإنسان الخلقي وتوجيهه للسلوك الصالح أو الفاسد ، وضبطه أو ترهّله أمام المغريات والمرديات ، ولكن الإرادة لم تزل حرة ، والاختيار لم يزل كاملاً ، والمسؤولية الذاتية عن أعماله لم تزل ثابتة : « ولكل درجات مما عملوا ،

وليوفيهم أعمالهم وهم لا يـظلمون ، [1] » « وبـدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هـذا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . » [2] .

---

(١) الاحقاف : ١٩ .

(٢) الجاثية : ٣١ ، ٣٢ .

سؤال :

ما معنى الآية الكريمة : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . . . » وهل ثمة رد على الذين يعتبرون هذه الآية دليلاً على صحة نظرية التطور ؟ .

وما وجه مخالفة نظرية التطور لعقيدتنا الإسلامية ؟

جواب :

اتصال مضمون الآية بما قبلها :

الآية الكريمة التي دار حولها السؤال هي الآية العشرون من سورة العنكبوت ، وهي متصلة المضمون بالآية المتقدمة عليها اتصالاً وثيقاً ، فقد وردت الآيتان لتقرير أمر واحد ، واثبات حقيقة واحدة ، وقد سلكتا في تقرير هذه الحقيقة واثباتها وأقامة البرهان عليها مسلكاً يكاد يكون واحداً ، والدليل الذي احتوت عليه الآية الثانية منهما ـ وهي موضوع الحديث ـ يكاد يكون بسطاً للدليل الذي تضمنته الآية الأولى ، والآيتان هما قوله عزّ اسمه :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشيء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير . » .

وقد أوردها النظم القرآني في غضون قصة إبراهيم (ع) ، وفي مساق دعوته لقومه ؛ أن يوحّدوا الله ربهم

وينفوا الانداد والاضداد عنه ، وأن يعبدوه وحده ويتقوه ويشكروا له نعمته ، ويلجأوا إليه ، ويرغبوا في ما عنده ، فمنه المبدأ وإليه المرجع . . .

في مساق هذه الدعوة وعرض خطوطها وأفيائها وشواهدها ومثبتاتها أورد السياق الآيتين الكريمتين الآنف ذكرهما ، وأورد بعدهما ثلاث آيات أخرى تتصل بمعناها وتتم فكرتهما . . .

فلعلهما من أجزاء دعوة ابراهيم هذه التي توجه بها إلى قومه .

ولعلها مد قرآني لمضامين تلك الدعوة : دعوة أبي الانبياء إبراهيم لترتفع عن حدودها من الزمان والمكان وتتحد بدعوة القرآن ، وهذا الرأي الأخير هو الذي يقتضيه التدبر في معاني الكتاب الكريم .

المد القرآني :

والمد القرآني كلمة أعني بها : الأضواء والهدايات الجديدة التي يصل بها القرآن دعوة الرسول ـ أي رسول ـ وهو يقتص قصته ، ويذكر دعوته . . . الأضواء والهدايات القرآنية التي يمد بها دعوة ذلك الرسول فيزيد مضمونها جلاءاً ويزيد بُرْهانها نوراً واشراقاً ، ويزيد آفاقها

سعة وشمولاً .

هذا النور الكاشف الجديد الذي يصل القرآن به دعوات الرسل المتقدمين لتلغي حدودها ومشخصاتها الخاصة ، وتمتزج بدعوة القرآن الخالدة عبر الأجيال والأزمان .

وإذن ، فالمأمور بالقول في الآية المقصودة بالسؤال هو محمد (ص) نبي الإسلام ورسول القرآن ، والمأمورون بالسير في الأرض وبالنظر كيف بدأ الخلق ، هم الناس المشمولون لرسالته المعنيون بدعوته .

فكرة الآيتين :

والفكرة التي تقررها الآيتان وتدعوان إليها وتلحّان على النظر فيها ، والتدبر في آياتها ، هي حقيقة الحقائق في دين الإسلام ، وفي كل رسالة من رسالات السماء التي سبقته في النزول :

إن الله سبحانه هو المبدأ والمعاد لكل وجود يعمر هذه الأكوان ، فهو الإله القدير الذي منه بدأت الأشياء وإليه تصير .

هذه الحقيقة الواحدة الضخمة التي تجمع عقيدة التوحيد ، وعقيدة النشور ، وعقيدة عموم القدرة ،

وعموم العلم والحكمة .

والحديث قبل الآيتين المقصودتين بالبحث . . . حديث إبراهيم مع قومه : يبلغهم رسالات ربهم ، وينصحهم ويدعوهم لما هو خير لهم :

(اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم » ، وليس معنى ذلك ان في عبادة غير الله وتقواه خيراً كذلك وان يك قليلاً ، وإن عبادة الله وتقواه أوفى خيراً وأعم نفعاً على ما تعطيه كلمة التفضيل ، ولكن على معنى أن الخير كله في عبادة الله وتقواه ، ولا خير أبداً في سواها ، « إن كنتم تعلمون » .

وإدلة هذا القول : انكم « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً » والأوثان هي التماثيل من الخشب ، وأي سخافة أشدّ وأنكى بالعاقل من أن يعبد أمثال هذه التماثيل ؟ ! .

وإن عبادتكم إياها لا تستندون فيها إلى قاعدة من منطق ، ولا إلى رشد من عقل ، وإنما (تخلقون أفكاً) وترضون بها أهواءً ، وتصرون على غي ، فأقيموا ولو دليلاً واحداً يرضي العقل بصحة هذه العبادة إن كنتم صادقين .

و « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم

رزقاً » ولا غير رزق مما تحتاجون إليه ، والنفع والضر إنما هما بيد الله وحده ، « فابتغوا عند الله الرزق » والجأوا إليه وحده ، « واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون » .

أليست العبادة الحقة هي الخضوع لمن بيده ملاك جميع الأمور ؟ .

أوليس الشكر حقاً خالصاً لمصدر النعم ؟ .

أليست الرهبة والرغبة إنما تجبان بل وإنما تحسنان لمن إليه الرجعى وبأمره الممات والمحيا ؟ .

ثم أليست هذه الخطوط التي تشتمل عليها الدعوة كلها بدهية وأدلتها كلها فطرية ؟ .

وخفت صوت إبراهيم بانتهاء بلاغه ، وامتدت الدعوة بصوت هو أرفع من صوت إبراهيم ، وببيان هو أنصع من بيانه ، وبحجة هي أقوى وأوضح من حجته .

امتدت الدعوة بصوت محمد (ص) ، وببلاغ القرآن ، لتسمع كل ذي سمع ممن ينكر الله ويكذب بلقائه . . .

إبداء الخلق وأعادته :

لتقول عن هؤلاء الذين ينكرون ويكذبون :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » ، وابداء الخلق ظاهرة وجودية مكرورة ، تقع كل حين وكل آن ، بل وتقع الملايين منها وملايين الملايين في كل لحظة وفي كل آن ، والافراد التي لن تحصى من أناسي وحيوان ونبات مما يتوالد ويتناسل كلها من آيات صدق الدعوى ، وإذا تتبعنا خطوات العلم فالبلايين التي لا تعد من الخلايا الحيّة التي يتألف منها تركيب كل جسم هي ، والأخرى التي تتجدد له ما دامت له الحياة ، وما دام له النشاط ، هذه كلها من آيات ثبوت تلك الدعوى : كيف يبدي الله الخلق ؟ .

والجامدات وسائر مظاهر الوجود التي يعج بها الكون لا تعدو هذه القاعدة ، وان كانت تتبع في بدء خلقها نشأة وجودها قوانين أخرى .

والبصير من الناس يرى هذه الظاهرة في الأشياء ، فيوقن ان لهذا الانشاء منشئاً وان لهذه الحركة الدائبة محركاً ، فإذا سلسل الفكر صاعداً إلى الخلية القديمة التي يقول عنها العلماء . انها أقدم خلية للحياة ، وعنها تطورت الأنواع ، قلت : فإذا سلسل الفكر صاعداً إلى

خلية الحياة الأولى السر العجيب الذي تحتويه ، وجدها مبدوءة الخلق كذلك وأيقن ان لها مُبدئاً .

والمادة التي يتركب منها الكون كذلك ، فليست أزلية ، ما دامت لن تستطيع بذاتها أن تتحرك دون محرك ، وأن تتجه دون موجه ، وسلسلة تأريخها الطويلة كلها شاهدة على ثبوت الدعوى ، فكل حلقة من حلقاتها مبدوءة الخلق تدل على مبدىء .

« أو لم يروا كيف يبدي الله الخلق ثم يعيده » ، والاعادة التي ذكرتها الآية قد يكون المراد منها تكرر الخلق بتسلسل النسل ، فان الفرد اللاحق من النوع ينشأ بذات الطريقة التي أنشىء بها الفرد السابق سواء بسواء .

فالنبتة النامية التي تكونت من بذرة ملقحة اتحد فيها عامل الذكورة بعامل الأنوثة ، هذه النبتة تنتج بذرة جديدة وتتلقح بدورها كذلك ، وتجري عليها ذات العوامل المؤثرات الكونية التي جرت على البذرة الأولى وتتكون منها نبتة نامية جديدة ، فهي إعادة .

والحيوان المخلوق من خلية تناسلية موحدة تفاعل فيها حوين الذكر ببويضة الأنثى ، هذا الحيوان ينتج خلية تناسلية جديدة وتجري عليها عوامل التلقيح ، وترِد عليها القوانين والمؤثرات التي جرت على الخلية الملقحة

السابقة ، ويخلق منها حيوان جديد ، فهي إعادة .

قد يكون المراد من كلمة الإعادة في الآية هذا التكرر في طريقـة التكوين ، ولا ريب في انـه إعادة للخلق ، وهو كذلك مشاهد محسوس . بل وأكثر ما يقعُ عليه البصر من المخلوقات إنما هو من هذا القبيل .

ففيم يشك هؤلاء الناس إذن ، وفيم يرتابون ؟ : إفي إبداء الخلق أم في اعادته ؟ .

ألم يروا ذلك بابصارهم ويدركوه ببصائرهم ؟ ! .

أم في ان لهذا الخلق مبدئاً ومعيداً ؟ أليس هو حكم الفطرة وقانون السببية الذي لا يرتاب فيه العقل ؟ .

ففيم الشك إذن ؟ . . . افي اعادة الخلق بعد المـوت ؟ . . . وأي فـارق بينهـا وبـين تكـرر الخلق بالتناسل ؟ ، كلاهما اعادة للخلق ومد للحياة ، وكلاهما لن يستعصي على القدرة القاهرة : (ان ذلك على الله يسير) .

وقد يكون المراد بالإعادة في الآية إعادة الحياة بعد الفناء ، هذه العقيدة التي يكذب بها المكذبون ، ويكون مضمون الآية الكريمة ـ على هذا الفرض الأخير ـ هو الاستدلال على إعادة الخلق بعد موتهم للحساب بإنشاء

خلقهم في هذه الدار ، فإذا صح أن يبدىء الله الخلق إبداءاً ـ وذلك مشاهد محسوس ـ صح أن يعيده بعد الموت فان نسبتهما واحدة إلى القدرة العظيمة ، التي لا يمتنع منها شيء : (ان ذلك على الله يسير) .

وليست الإعادة وحدها على الله يسيرة ، ولا الابتداء وحده ، بل كل ما تتعلق القدرة بتكوينه أو تدبيره ، فهو على الله يسير ، والله على كل شيء قدير .

ومعنى الآية ـ على هذا ـ هو معنى قوله سبحانه في سورة يس : (قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم)[1] . وهو كذلك معنى الآية الثانية الآتية التي دار حولها السؤال ، وهو معنى آيات أخرى احتجت كذلك على وقوع النشأة الآخرة بوقوع النشأة الأولى ، وان اختلف بعض هذه الآيات عن بعض في أساليب العرض ، وفي خصوصيات السياق .

سيروا في الأرض :

ثم ثاني الآية التي دار حولها السؤال لتقرر الفكرة ، وتتم الدليل ، فأي شوط قطعته وإلى أي مدى ؟ .

---

(١) الآية : ٧٩ .

لعل هؤلاء الناس لا يبصرون ما يقع نصب أعينهم من بواهر الآيات . . . لعل الإلفة حجبتهم عن التفكر في ما يبصرون ، ثم عن الانتفاع بما يفكرون ؟ ، والإلفة غشاء يغطي على الأعين ان ترى الأشياء المألوفة رؤية كاشفة نافعة ، ويصد العقول ان تفكر فيها .

والعلاج النافع لذلك : أن يسير الإنسان في الأرض . . . أن يتحول إلى بقاع جديدة من الأرض لم يألف مشاهدها ، ولم يملل رؤاها ، فان جدة الأشياء والمظاهر في هذه البقاع وغرابتها عليه ستلفته أن يرى ، وأن يفكر ، وأن يعاود الرؤية والتفكير ، وقد يطول المران ، فيفيد بسبب ذلك عيناً بصيرة وحساً يقظاً ، وقلباً واعياً ، ولا تصده الإلفة والاعتياد بعد ذلك .

ولعلهم يوهمون أن للكون في البلاد النائية عنهم سبيلا غير السبيل التي يرونها من ابداء الخلق ثم اعادته ، والآية الكريمة تبتدىء برسم الخطة لرفع أثر الإلفة وإزالة خطر الوهم .

(قل : سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق) ، سيروا فانظروا ، فان الاغذاذ في السير والغلغلة في النظر يزيد الحقيقة تقرراً ، ويزيد البرهان عليها جلاءاً ، ويزيد الإيمان بها رسوخاً ، وتطواف

الإنسان في اقطار الأرض سيكشف له أمداداً لاتتناهي من الآيات،وأبعاداً لا تحصر من القدرة ، وآفاقاً لا تحدّ من العلم والحكمة .

(سيروا في الأرض فانظروا) ، فالحياة التي تزين أقطار المعمورة ، وتملأ ربوعها ، والخلق الذي يزحم مناكبها وآفاقها ، وهذا الكون الضخم ، الهائل ، المترامي الابعاد ، المتسلسل العجائب هذه كلها ، لا بد وأن تكون لها بداءات ، كما لكل شيء من أشياء الكون ، وكل جزء من أجزائه .

(فانظروا كيف بدأ الخلق) وكيف أبدع عجائبه ، سلسل مدهشاته ، إنه مبدوء فلا بد وأن يكون له مبدىء ، وقد صدر بقدرته ، وانتظم بتدبيره ، وكيف يبلغ المرء إلى هذه الغاية من المعرفة ، إذا هو لم يسر في الأرض ، ولم يبحث عن سر التكوين ؟ .

(سيروا في الأرض) ولو كان البشري مستطيعاً ، ان يسير في غير الأرض من أجزاء هذا الملكوت لدفعته الآية الكريمة أن يسير فيه كذلك ، وأن ينظر كيف بدأ الله الخلق ، وقد قال في سورة يونس : (قل : انظروا ماذا في السماوات والأرض) [١] .

---

(١) الآية : ١٠١ .

والسير للبحث والنظر غاية يريدها الله للإنسان ليفتح له كنوز العلم ، ويضع بيديه مفاتيح السعادة ، ومؤهلات السيادة .

« سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ، فشواهد القدرة الغالبة بادية في كل وجهة ، وعلى كل شيء ، « ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » ، بهذه القدرة الغالبة ، المسيطرة ، التي بدأت الأشياء على نهج الحكمة ، وقدّرتها على وفق العلم ، نعم ، بهذه القدرة ينشىء الله النشأة الآخرة كما بدأ النشأة الأولى ، « إن الله على كل شيء قدير . » .

هذا هو معنى الذي تفهمه الآية ، والله أعلم بحقائق كتابه .

الآية ونظرية التطور :

أما نظرية التطور ، فلست أعلم صلة لها بالآية ، ولا وجهاً تعتبر الآية من أجله دليلاً عليها .

بلى ، قد يكون في الآية إيماء إلى أن في الأرض ما يدّل على كيفية نشوء الخليقة عليها ، في رمالها وصخورها ، ومخلفات العصور بين طبقاتها . وقد يكون من الآية إيماء إلى هذا ، ومن أجله أمرت بالسير مقدمة

للنظر كيف بدأ الخلق . . . فلنسلم أن هذا هو المراد في الآية ، وأن حصيلة معناها في الأرض .

« سيروا في مجاهل الأرض وابحثوا في رمالها ، وتلالها ، وبين صخورها ، وقعور بحورها ، ومتروكات عصورها ، فانظروا كيف بدأت الخليقة وكيف نشأت » .

أقول : لنسلم ان هذه هي حصيلة معنى الآية فأي دلالة فيها على نظرية التطور ، ثم على صحة نتائجها ؟ ! .

هل نخالف نظرية التطور العقيدة الإسلامية :

أما السؤال الأخير . . .

أما ان نظرية التطور هل تخالف العقيدة الإسلامية في وجه أم لا ؟ . فالواقع ان نظرية التطور حتى لو افترضنا انها ثبتت ثبوتاً علمياً لا نقاش فيه ولا شك بعده لن تستطيع أبداً أن تهز عقيدة من عقائد الإسلام الرصينة ، أو تصدع قاعدة من قواعده . . .

لن تستطيع ذلك أبداً ، ما دامت لن تقوى أن تثبت ان المادة أزلية ، وأنها بسبب أزليتها وأزلية قوانينها مستغنية عن وجود مؤثر . . . عن وجود إله .

ولن تستطيع ذلك ما دامت لن تقدر أن تثبت أن المادة الجامدة يمكن أن تتطور بذاتها لا بمؤثر خارج عنها حتى يوّلد فيها سر الحياة .

ولن تستطيع ذلك ، ما دامت هذه الالغاز وأمثالها من أسرار التكوين لن تجد لها حلاً يرضى العلم ، ويرضي العقل ، ويرضي الفطرة ، إلا بوجود إله قادر حكيم . لن تقوى نظرية التطور على أن تصدع عقيدة من عقائد الإسلام الرصينة حتى لو افترضنا أن النظرية ثبتت ثبوتاً علمياً لا نقاش فيه ولا شك بعده ، فكيف وهي ـ بعد ـ في فاقة شديدة إلى السند العلمي المتين ، وقد اعترف بهذا جماعة من أعاظم العلماء التجريبيين ممن عارض دارون في فلسفته تلك .

نعم ، ثبت من آيات الكتاب ، ومن متواتر السنة ، ثبوتاً قاطعاً لا مراء فيه ، ان آدم هو الأب الأول لهذا البشر ، وان الله بدأ خلقهُ من طين ، وذكر القرآن لابتداء خلقه قصة طويلة مفصلة ، ولم يعد من الممكن أصلاً ـ بعد نزول قوله الله خالق البشر ومقدر بداءته وخاتمته ـ ان يكون هذا البشري منحدراً من سلالة قرد أو من صلب حصان .

الإسلام يقرر وجود أنواع بشرية سابقة :

وأباد فأقول : ليس معنى ما تقدم ان الإسلام يجحد وجود نوع بشري قبل آدم ، وقبل هذه السلالة التي وجدت من نسله ، وقد ورد في آثار الهداة المعصومين من أهل البيت (ع) : (لعلك ترى أن الله عزّ وجلّ إنما خلق هذا العالم الواحد ، وترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم ، بلى والله ، لقد خلق الله ألف ألف عالم ، وألف ألف آدم ، أنت في آخر تلك العوالم ، وأولئك الآدميين)[1] .

وتبارك الله الذي لا تتناهى قدرته ولا تنفذ حكمته .

---

(١) انظر آخر حديث من كتاب الخصال للصدوق القمي (قده) .

سؤال :

من المعلوم ان الدولة الأموية كانت ظالمة فلماذا لم يتخذ الامام الحسن (ع) الأجراءات الإسلامية ضد تلك الدولة ؟

جواب :

لماذا صالح الحسن معاوية :

هذا سؤال تردد على الألسنة منذ اليوم الذي تم فيه صلح (ساباط) وأغمد الإمام الحسن (ع) سيفه ، وهادن خصمه وخصم أبيه وعدو جده من قبله وقبل أبيه . . . تردد هذا السؤال على ألسنة كثير من الناس وأقلامهم ، واتخذ صيغاً وأساليب ، واختلف السائلون والمتسائلون في مقاصدهم من إثارته ، ومن الحديث حوله ، وقد حدث التاريخ ان جماعة من أصحاب الإمام الحسن (ع) واجهوه بالسؤال نفسه لما أبرم عقد المهادنة ، وكانوا مختلفين كذلك بالصيغة والأسلوب ، وكانت دخائل بعضهم أبعد ما يكون عن الالتواء على الإمام (ع) وان كانت كلماتهم ولهجاتهم تعبر عن الألم الشديد المرير .

وصيغة السؤال المعروفة التي رددتها الألسنة أكثر من سواها هي : لماذا صالح الحسن معاوية ؟ .

وكنت قد استعرضت الموضوع في حديث سابق

لي ، وسأكتفي بنقل ما كتبته هنالك في جواب هذا السؤال .

قلت في ذلك الحديث :

طبيعة الحق والباطل :

من طبيعة الحق انه صريح الدعوة ، مستبين الغاية ، مشرق الأساليب ، ومن طبيعة الباطل انه يجنح إلى التمويه في دعوته وإلى الالتواء في مساربه ، وإلى التضليل عن اهدافه .

في طبيعة الحق انه صريح ، فلا ليس عنده في قول ، ولا غشاوة على هدف ، ولا انحراف في طريقة ، ولا غموض في تدليل ، ومن طبيعة الباطل انه موارب ، فدعامته الشك وبيئته الظلمة وسبيله التلوّن والمخادعة .

وهذه خصائص واضحة يحسها الفكر في نظرته الأولى ، متى حاول أن يحدد مفهومي هاتين الكلمتين ، فلفظ الحق يفهم معنى الثبوت ، والثابت من الأمور لا فاقة به إلى ان يلتوي في قصد ولا أن يوارب في غاية ، بل والالتواء والمواربة يؤديان به إلى نقيض المراد ، وكلمة الباطل تدل على معنى الفساد والهدم ، والفساد لا يعرف الاستقامة على مبدأ ، ولا الاستقرار على طريقة إلا إذا

كانت الطريقة التي يتبعها هي الفساد . . .

الحق ثبوت ، وطريق الثبوت هو العلم ، وسند العلم هو البرهان المنير . والباطل هدم ، واداة الهدم هي الشك ، ومبدأ الشك هو الالتواء . على هذه الأسس المكينة في طبيعة كل من الخصمين أقيمت مبادئهما في الدعوة ، ووضعت مناهجهما للعمل ، وعينت غاياتهما في الإتجاه ، وعلى هذه الأسس المكينة من طبيعة كل من الخصمين كانت قادة الدعوة في كل جانب منهما منطبعة بخصائص ذلك الجانب الذي تدعوا إليه .

فدعاة الحق صريحون لا يخادعون ، ومستقيمون لا ينحرفون ، ودعاة الباطل على الضد من هذه الخلال ، فهي مغلفة القلوب ، ملبسة الألسنة ، مدلسة الغايات والأعمال .

صراع الحق والباطل :

وعلى هذه الأسس المكينة في طبيعة كل من الخصمين قامت بينهما الحرب الضروس التي لم تهدأ في ماض ، ولن تخمد جمرتها في مستقبل ، ولن تكسر شرتها في حال . . . الحرب التي لا تعرف حداً ، ولا تختّص بلون ، ولا تخلد إلى سكون أبداً .

ذلك لأنها حرب فكرتين متناقضتين ، وفكرة النقيض لا تنهزم أبداً وإن انهزمت انصارها ، وحرب المبادىء قائمة أبداً ، وان أغمدت السيوف وأوقفت الزحوف .

ولقيادة الباطل - على الأكثر - مرونة وحنكة تستطيع بفضلهما أن تتقن أدوارها في التمثيل، وإن تكسب الفوز لها ، ولو إلى حين .

تستطيع بفضل تلك المرونة أن تشوه بعض الحقائق ، وأن تمسح بعض الصور ، وأن تلون بعض الأحداث ، ولو للسذج من الناس ، فتخرج الباطل بصورة الحق ، نعم ، وتصور الحق بملامح الباطل ، تستطيع أن تصنع كذلك لتكسب من أنصار الحق من كان ضعيف العقيدة ، ضعيف البصيرة ، ويمهد لها إلى هذه الغاية ما في فطرة الباطل من مخادعة ، وما في معنى الحق من صرامة ، وما في طبيعة الشك من يسر وسهولة .

وإذن ، فهل يسع قائد الحق إلا أن يصمد لهذا الهجوم الأعزل كما يصمد للهجوم المسلح . وأن يكافح هذا العدوان المقنّع كما يكافح العدوان السافر ؟ ، وقد قلت في ما تقدم : ان حرب الحق والباطل لا تختص بلون ، ولا تنتهي عند حدّ ، نعم ، وقد يكون هذا

الهجوم الأعزل أشد وقعاً ، وأمضى أثراً من الهجوم المسلح .

ضروري لقائد الحق أن يتخذ الاهبة ، وأن يصدّ الهمجية ، ولكن في حدود قيادته ، وحدود الحق الذي يقوم هو بدعوته ، ويدأب على نصره .

عليه أن يجلو بنور العلم ظلمة الشك ، وأن يوضح بالبرهنة وجه الحق ، وأن يثبت القلوب المضطربة ، ويعالج العقائد المدخولة .

ويمهد له ؛ ان العقول بطبيعتها تؤمن بالحق ، وان النفوس بفطرتها تجنح إلى الاستقامة .

على قائد الحق أن يصنع كذلك ، وأن كلفه هذا طويلاً من الزمن وكثيراً من الجهد ، نعم ، ومن أجل ذلك اشترطنا في القائد الأعلى لدعوة الحق ، (في الإمام) أن يكون أعلم الناس كلهم بأدواء المجتمع وأبصرهم كذلك بعلاجها . . . وهذا نوع من الجهاد قد يجب ـ من أجل القيام بـه ـ اغماد السيف إذا تـزاحمت الأمور وتعارضت الوجوه .

يوم صفين :

كاد الحق أن يدال له من الباطل يوم صفين . وأوشك محمد أن يبلغ المرمى من جيش أبي سفيان .

محمد في دعوته الأولى من أبي سفيان في صورته الثانية .

وادرك الخصم ان المحاكمة إذا كانت كلها إلى السيف فستظهر كلمة الله ولا ريب ، وستكون نهاية الاحزاب الثانية عين نهايتهم الأولى .

أدرك الباطل ذلك بدهائه : فجنح للمخاتله . . . وأعد القذيفة . . . ورفع المصاحف . . . وقذف النار ! ! .

أجل . انه قذف النار فهلعت قلوب ، وعقدت ألسن ، وأظلمت بصائر ، ونقضت عهود ، والتجأ الحق إلى إغماد السيف ، وبدأ يعالج الحادث ويصدّ الغارة .

وطال الموقف ، ولا محيد للموقف من أن يطول ، واغتيل القائد الأعلى للحق في حادث من حوادث الفتنة ، فتأزم الموقف واشتدت حراجتهُ .

قيادة الإمام الحسن :

وانتدب الإمام الحسن السبط (ع) للقيادة الكبرى بعد مقتل أبيه ؛ فما تراه فاعلاً ؟ .

أيشهر السلاح ؟ . . .

ما الذي جد يا ترى ؟ .

هل تم علاج الموقف بعد مقتل علي (ع) ليتمشق الحسن السيف ؟ .

هل ثاب المخدوعون إلى رشدهم ليستعيد الحق موقفه الأول ؟ .

لا . لا . ان الموقف لا يزال ـ بعد ـ على دقته وعلى شدة حراجته .

وإذن ، فلا بد من إغماد السيف ، واتمام العلاج .

واغمد الحسن (ع) السيف ، فقال التاريخ والمؤرخون : صالح الحسن خصم أبيه ، وتنازل له عن حقه .

لا . لا . لم يصالح الحسن (ع) خصماً ، ولم يتنازل عن حق ، ولكنه استضعف العقيدة في جنوده ،

وكيف يلقى عدوه بجند ليس لهم قلوب ؟ ! .

العقاد وصلح الإمام الحسن :

ويجتاز الكاتب العربي الكبير الأستاذ (عباس محمود العقاد) على هذه المرحلة الدقيقة من التأريخ ، فيلقي عليها نظرة قصيرة جداً ، قريبة لا تنفذ إلى الأعماق ، ولا تستوعب الملابسات ، ويخلص أخيراً إلى نتيجة مزدوجة :

فهو يرى الحسن معذوراً في ما صنع ، ولكنه يتهم قيادته بالضعف .

يرى الأستاذ . ان الحرب لطولها وشدتها قد انهكت الجنود واجهدت القوى ، وأن الحسن لما رأى هذه الظاهرة في جنوده صمّم على القاء السلاح لأنه لا يستطيع أن يخوض غمار الحرب بقوىً مرهقة ، ثم يقول الأستاذ : (ولئن كان في هذا عذر للحسن عما صنع فانه يدل كذلك على قصور في القيادة ، فإن الحرب قد اجهدت جيوش خصمه كما أجهدت جيوشه ، والقائد القوي يملك أن يستعيد معنويات جيشه بالخُطب الملتهبة وبالأعمال المشجعة) .

هذه نظرة الأستاذ التي القاها على هذه المرحلة

الدقيقة من التاريخ ، وهذا حكمه فيها ، فهل صدقت معي انها من نظرات البسطاء الذين يبصرون ما بين أيديهم ثم لا يلتفتون إلى ما حول ولا إلى ما وراء ؟ ! .

هل صدقت معي ان الأستاذ حين قال قولته هذه لم يرجع بنظرته هذه إلى فتنة المصاحف ، ولا إلى حادثة التحكيم ، ولا إلى واقعة الهزوان ، ولا إلى حديث المؤامرة التي انتهت بمصرع القائد الأول للحق ، ولا إلى شيء آخر يتصل بهذه الشؤون ؟ .

انه لم يرجع بنظرته إلى شيء من ذلك ليستيقن ان السر أعمق كثيراً من هذا الذي توهمه سبباً ثم توجه إليه بالنقد ! . . .

هذا ما كتبته في حديثي السابق حول صلح الإمام ، وأقول ها هنا صلة للموضوع .

ظهور حقيقة الحكم الأموي :

أغمد الإمام الحسن (ع) السيف وأعلن الهدنة ، فمكن بذلك للناس أن يروا الحكم الأموي على سجيته رأي عين ، وأن يبرز أمامهم بخصائصه وأهدافه عارياً مفضوحاً دون طلاء ولا تزويق . . .

للناس كافة . . . وليس للعراقيين فقط ،

ولا للمصريين والحجازيين واليمانيين معهم ، بل حتى لأهل الشام ، فقد كانت المخادعات والمخاتلات الأموية تستر عليهم وجه الحقيقة طول أيام الحروب .

ومكن للناس كلهم ساميهم وعراقيهم أن يستمعوا إلى الحاكم الأموي الأعلى في يوم (ساباط) ذاته وهو يفضح خطته ، ويعلن هدفه ، ويكذب دعاواه الطويلة العريضة التي خادع الناس بها طوال السنين .

أن يستمعوا إليه وهو يقول لهم : انه لم يقاتلهم ليصوموا ولا ليصلوا ولا ليحجوا ولا ليزكوا ، لم يقاتلهم ليقيم ركناً من اركان الإسلام هم تاركوه ، إذن ، فعلى ماذا اطلت الدماء ؟ . ولماذا رفعت المصاحف ؟ ، بل ولماذا هتف بدم عثمان ؟ ، انه قاتلهم ليتآمر عليهم فأعطاه الله ذلك وهم كارهون .

هذه هي الغاية وكل ما سواها فوسيلة ، حتى القرآن لما رفعه يوم صفين .

نعم ، حتى القرآن فقد كان وسيلة لا غاية .

وحتى دم عثمان .

إنما هي القوة والامرة على الناس وهم راغمون كارهون .

مكن الإمام الحسن (ع) للناس كلهم ، شاميهم وعراقيهم ، أن يستمعوا إلى معاوية يقول لهم هذا بصراحة لم تعهد له في يوم من الأيام ، ولقد كان هذا وحده سبباً كافياً للاتيان على بناء دولته من القواعد لو كان في البصائر والضمائر بقية من نور .

وتلت الحوادث والأعمال والأقوال من معاوية ومن عماله وبطانته تشرح المجمل وتضع النقاط وتكشف المستور من مناهج هذه الدولة .

ومواقف الحسن وأقواله وسيرته إلى جنب ذلك تعرف الناس سبيل الهدى الذي اجتنبوه ، ومناهج العدل الذي خذلوه ، والناس تسمع وتبصر وتعي وتزن ، بملء اسماعها وأبصارها وأذهانها وعقولها ، فأي اجراء إسلامي يستطاع في تلك الظروف هو أكبر من ذلك وأجدى للأمة ؟ .

وكان من أثر هذه التمهيدات التي قام بها السبط الأول (ع) أن ترنح بناء الدولة الطاغية عند الضربة التي سددها شقيقه وخليفته الإمام الحسين (ع) ثم هوى الصرح وتدكدك البناء .

سؤال :

يقول الله سبحانه : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) .

ويقول ـ سبحانه ـ في الآية التي تليها : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . . .) .

وظاهر هاتين الآيتين التعارض ، فان الآية الأولى تدل على أن السيئة والحسنة من عند الله ، والآية الثانية تدل على ان الحسنة من الله وان السيئة من نفس الإنسان . فكيف يكون الجمع بين الآيتين الشريفتين ؟ .

جواب :

تصحيح مفهوم خاطىء :

سألت آدام الله لك التوفيق عن معنى قوله تعالى : (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله ، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً)[1] . . . سألت عن معنى الآيتين الكريمتين ، وعن الوجه الذي يرتفع به التعارض الذي يبدو لأول نظرة بين ظاهريهما .

والآيتان الكريمتان تحتويان على تصحيح لمفهوم خاطىء كان يتصوره فريق من الناس حول الحسنة والسيئة التي تصيب الإنسان .

وهذا المفهوم الخاطىء عريق في القدم ، وهو شائع

---

(١) النساء : ٧٨ ـ ٧٩ .

لدى كثير من الناس ، فقد نقله القرآن عن بعض الأمم يجابهون به انبياء هم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ، ففي سورة الأعراف ـ مثلاً ـ يتحدث عن قوم فرعون بعد ما جاءهم موسى بالبينات والهدى فكذبوا بما جاء به وجحدوا ، وبعد أن أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، يقول عنهم : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وأن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) ثم يقول : (إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) [1] .

وفي سورة النمل ينبىء عن ثمود (قوم صالح) انهم جبهوا بذلك لرسولهم وهو يدعوهم إلى الهدى وإلى السبيل التي تصل بهم إلى الخير والرحمة و : (قالوا : أطيرنا بك وبمن معك . قال : طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون) [2] .

وفي سورة يس في حديثه عن أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون : (قالوا : إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم أئن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون) [3] .

---

(١) الاعراف : ١٣١ .

(٢) النمل : ٤٧ . (٣) يس : ١٨ ـ ١٩

والآية الأولى من آيتي السؤال تقول : ان فريقاً من الناس ممن عاصر الرسول محمداً (ص) وعايش الرسالة رسالة الإسلام يواجه الرسول العظيم بهذا التعبير الوقح ، وبهذا المفهوم الخاطىء كذلك ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : هذه من عند الله ، وإذا أصابتهم السيئة قالوا : هذه من عندك ، تشابهت قلوبهم - كما يقول القرآن الكريم - وتشابهت تصوراتهم ، وتشابهت وجهاتهم التي يقصدون وطرائقهم التي بها يفكرون .

ومرّ الزمن ، وهذا التصور الخاطىء ما زال يحتل كثيراً من الأذهان ، ويمتطي كثيراً من النفوس ، ويوجه كثيراً من الناس في أهدافهم وسلوكهم ، فيحوكون حول الحسنة والسيئة ما لا صلة له بواقع ، ولا دخل له في تأثير ، ويحتكمون ويتطيرون ، وقولة الإسلام في ذلك صريحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

والمقصود من الحسنة هنا هي أنواع النعماء والخيرات التي توافي الإنسان في هذه الحياة ، والانتصارات والأحداث المحبوبة التي يسرّ بها الإنسان ، وتحقق له بعض رغائبه ، والمقصود من السيئة أنواع النقم والبؤس والشرور والمكاره التي تسوء الإنسان ، وتحول دون رغائبه ، والهزائم والنقائص التي تلمّ به في كفاحه

في هذه الحياة ، وليس المراد منهما الطاعة والمعصية اللتين يكتسبهما الإنسان في الأعمال .

ويدل على أن الحسنة والسيئة هنا بمعنى الخير والشر ، والنعمة والنقمة ، والخصب والجدب وما يسر الإنسان وما يسوءه قوله ـ سبحانه ـ في الآية الكريمة : وإن تصبهم حسنة . . . وإن تصبهم سيئة . . . فالحسنة والسيئة هما اللتان تصيبان الإنسان ، أما الطاعة والمعصية فإن الإنسان هو الذي يصيبهما ويكتسبهما ، وهذا هو التعبير الذي درجت عليه بلاغة القرآن الكريم ، فيقول في الحسنة والسيئة بمعنى الطاعة والمعصية : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون) [1] .

(ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) [2] .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [3] .

---

(١) الانعام : ١٦٠ .

(٢) الشورى : ٢٣ .

(٣) البقرة : ٨١ .

ويقول في الحسنة والسيئة بمعنى ما يسر وما يسوء :

(ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها .)[1] .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . . .)[2] .

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون)[3] .

(وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون)[4] .

من الذي واجه الرسول بهذا القول ؟

واختلف المفسرون في الفريق الذي واجه الرسول (ص) بهذا القول ، فذكر جماعة منهم : إن الفريق الذي واجه الرسول بذلك هم اليهود من سكان المدينة ، كانوا يقولون ـ إذا أصابهم خصب وسعة ـ هذا من عند

---

(١) آل عمران : ١٢٠ .

(٢) الاعراف : ١٣١ .

(٣) التوبة : ٥٠ .

(٤) الروم : ٣٦ .

الله ، وإن أصابهم جدب وضيق ونقص في الثمرات والمزارع يقولون : هذا من شؤم محمد .

وقال بعض أهل التفسير : الفريق الذي واجه الرسول (ص) بهذا القول هم المنافقون من أهل المدينة ، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ، (والذين قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . . .) كما أنبأنا الله عنهم في الآية (١٥٦) من سورة (آل عمران) .

وقال جماعة آخرون من أهل التفسير : القول الذي نقلته الآية الكريمة عام لليهود والمنافقين جميعاً .

والنظرة في السياق الكريم الذي ترتبط به الآيتان ارتباطاً مباشراً ويتصل به معناهما اتصالاً وثيقاً ، تدلنا على أن المراد غير ما يقول هؤلاء جميعاً .

يقول (سبحانه) في سابق هاتين الآيتين الكريمتين : « ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفّوأيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كُتبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية ، وقالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال ؟ ، لولا أخرّتنا إلى أجل قريب ، قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم

في بروج مشيّدة » .

وهذا القول الكريم يرشدنا إلى أن جميعاً من المؤمنين ـ في بداءة أمر الإسلام ـ كانوا يضيقون ذرعاً بما يلقون من أذى الكافرين وبغيهم ، ويودّون لو قابلوا الشر بالشر وناجزوهم الحرب ، وكانوا يستعجلون الرسول أن يأمرهم بالقتال .

وكان الوحي يتأناهم في ذلك ، ويحدّد لهم وظيفتهم التي يجب عليهم اداؤ ها آنذاك ، فليس من الحكمة أبداً أن يخوض المسلمون حرباً مع المشتركين قبل أن يثبت الإسلام قدميه ، وقبل أن يكون له من القوة ما يعادل قوة العدو ، أو يقاربها على أدنى التقادير ، وجهاد المسلمين في الوقت الحاضر هو الصبر ، ووظيفتهم الكاملة أن يكفّوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤ تو الزكاة ، أن يستمدوا من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتسليم الكامل لأمر الله قوة روحية تكون لهم عدة كاملة للكفاح في الحياة ، وسنداً متيناً يستندون إليه حين يؤمرون في المستقبل بلقاء العدو ، « ألم ترَ إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . . » .

فلما جد الجد وصدر الأمر وكتب عليهم القتال إذا فريق منهم . . . من هؤلاء الذين كانوا يتمنون القتال

ويستعجلون الأمر به من الرسول ، إذا فريق من هؤلاء أنفسهم يخشون الناس وهم ناس أمثالهم ، لهم ما لديهم من القلوب ، والدم واللحم ، ولهم ما لديهم من القوة والقدرة . . . يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، هكذا يهبط بهم الجبن ، وضعف النفس ، وصغار الهمّة ، وخور العزيمة إلى هذا الحضيض الأسفل الأدنى .

انهم يرتفعون بالناس . . . بالعباد . . . المخلوقين . . . الضعفاء ، وبقوتهم المحدودة ، وكيدهم الضعيف حتى يعادلوها بقوة رب العباد ، أو يزيدوا في التقدير ، فهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، أو هم يهبطون بقدرة الله وشدّة أخذه إلى ما هو أدنى وأضعف من قوة الناس وبأسهم .

« وقالو : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ » ، كذا يرفعون دعاءهم إلى الله ، كله عتاب ، وكله لَوم ، وكله لؤم . . . لم كتبت علينا القتال ؟ ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ ، كم نحن نبقى في الحياة لو أخرتنا فيها ؟ ، وهل يعدو أن يكون بقاؤنا فيها إلا إلى أجل قريب ؟ . . . فهلا أخرتنا إلى هذه الأجل دون أن تكتب علينا القتال فتعرضنا للموت بأيدي الناس الذين لا يرحمون .

يخشون الناس أن يلتقوا بهم في ساحات الحرب ، ولا يخشون الله ولا يستحيون منه يردون أمره بهذا القول ، وبهذا الاعتراض الأبله .

الآيات علاج لهذه القلوب :

ويمر السياق يعالج هذه القلوب التي أخذها الهلع وامتلكها الجبن والخوف من الناس ، لعلها تثوب إلى رشدها وتتركز في إيمانها ، وتنجلي عنها غشاوة الوهم ، فتدرك أن الأمر أهون كثيراً مما تتصور ، وان الغاية التي تضحي من أجلها أسمى مما تفكر .

إن هذه الفئة من الناس مؤمنة ولكنها ضعيفة الإيمان ، ضعيفة النفوس ، ضعيفة التفكير ، فهي تستبهض الثمن لأنه يكلفها الحياة ، وهي تجهل أن التضحية لا تقاس بمقدار ما يبذل . وإنما تقاس بمقدار ما يكسب ، والمتاجر إنما ينظر إلى عظم الربح لا إلى عظم الثمن .

إن هؤلاء يطلبون المهلة ليتمتعوا في الحياة إلى أجل قريب ، كأن القتال يقرب لهم أجلاً لم يحن موعده ، وكأن الموت ينفسح لهم عن ميعاده إذا لم يكتب عليهم القتال ، أو كأن الموت إنما يدركهم في ساحات الحرب ، لا في

واحات السلم .

وهب انهم تمتعوا في الحياة برهة ، فما قيمة هذا المتاع القصير القليل إذا قيس بمتاع الآخرة الذي يناله المجاهدون المؤمنون الذين يتقون الله لا يتقون الناس : « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى » .

فالأمر أمر مساومة وتجارة غزيرة المغنم بينة الربح ، ونتيجة التخيير واضحةلمن عقل، وليس وراء ذلك إلا أن يخافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فيحرمهم أو ينقصهم العوض ، وهذا ما لا يفكر فيه مؤمن ، ولا يتردى إليه وهمه . « ولا تظلمون فتيلاً » .

أما الموت فإنه حتم ، وله ميعاد موقوت ، ولا تقرّبه ساحات حرب ، ولا تعصم منه قلاع أمن . . . « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة » .

وقد أخرج الحافظ النسائي في باب وجوب الجهاد من كتاب السنن عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي (ص) بمكة ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا في عز ونحن مشركون . فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا ، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا . فأنزل الله عزّ وجلّ : (ألم تر إلى الذين قيل لهم

كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة . . .) [١] .

واخرج الحديث كذلك الحافظ البيهقي في كتابه (السنن الكبرى) في باب مبدأ الأذن بالقتال من كتاب السير . [٢]

واخرجه كذلك الحاكم النيسابوري في كتابه (المستدرك على الصحيحين) ، وقال بعده : هذا صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه [٣] .

واخرجه محمد بن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان [٤] .

وأورده الحافظ جلال الدين السيوطي في تفسيره : الدر المنثور عن الجماعة الأنف ذكرهم وعن ابن أبي حاتم [٥] .

---

(١) انظر سنن النسائي : الجزء السادس ، ص ٣ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٢) انظر سنن البيهقي : الجزء التاسع ، ص ١١ . الطبعة الأولى .

(٣) انظر المستدرك للحاكم : الجزء الثاني ، ص ٣٠٧ طبعة حيدر أباد دكن .

(٤) انظر تفسير الطبري : الجزء الخامس ص ١٧٠ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٥) انظر الدر المنثور : الجزء الثاني ، ص ١٨٤ .

وفي الدر المنثور كذلك أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر : عن قتادة في الآية ، قال : كان أناس من أصحاب النبي (ص) وهم يومئذٍ بمكة قبل الهجرة يسارعون إلى القتال ، فقالوا للنبي (ص) : ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشركين ، وذكر لنا : ان عبد الرحمن ابن عوف كان في من قال ذلك ، فنهاهم نبي الله (ص) عن ذلك، قال: لم أؤمر بذلك، فلما كانت الهجرة وأمروا بالقتال كره القوم ذلك ، وصنعوا فيه ما تسمعون ، قال الله تعالى : (قل : متاعِ الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلاً [1] .

وفي هذا السياق المتصل ، وفي تكمله الآية الثانية منه : « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيّدة ، يقول سبحانه : (وان تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله وان تصبهم سيئة هذه من عندك ، قل : كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . . . » ، إلى نهاية الآيتين اللتين يدور حولهما السؤال ، فهما جزءان من السياق لا ينفصلان عنه حتى في الضمائر ، والاشادة التي تحتوي عليها الآية الأولى منها .

---

(١) انظر المصدر المتقدم والصحيفة نفسها .

وظاهر هذه الوحدة الملحوظة في السياق ، وهذه الضمائر التي تشتمل عليها الآية والتي من شأنها أن تعود إلى شيء متقدم في الذكر . . . ظاهر كل ذلك أن الفريق الذي قال هذا القول هم أولئك الناس الضعفاء الإيمان ، الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وهذه ناحية أخرى من الضعف تتصف بها هذه الفئة من الناس .

موطن الضعف في هذا التصور :

وموطن الضعف في بناء هذا التصور أنهم ينسبون الحوادث الكونية إلى غير مصدرها الحقيقي ، فيفرّقون ما بين الحوادث التي تسرّهم ، من خصب ونعمة وسعة ودعة ونصر وغنيمة ، فينسبونها إلى الله ، فهو مصدر كل خير ، والحوادث التي تسوءهم من جدب وضيق ، ونقمة وشدة ، وخسارة وهزيمة فينسبونها إلى وجود ناس يتشاءمون منهم ، أو إلى تدبيرهم ، وادارتهم للأمور .

والفريق الذي عاصر الرسول (ص) من هؤلاء الناس ، والذي عنته الآية الكريمة كانوا ينسبون السيئة التي تصيبهم إلى الرسول (ص) ، « ان تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا :

هذه من عندك » .

فهو انحراف في خطّ التفكير الذي يبتني عليه الإيمان ، والمؤمن يوقن ـ حق اليقين ـ بأن الله وحده هو مصدر هذا الكون ومدبر حوادثه كلها ومُظمها ، ما سر الإنسان منها وما ساءه ، وما حقق رغائبه منها وما خيّب وما انتج له الفوز والغنيمة ، وما أعقب له الخيبة والهزيمة ، كلها بتقديره (سبحانه) وبتدبيره ، وفق قوانينه التي وضعها بحكمته ، وأطلق حكمها في الأسباب والمسببات بمشيئته ، وهذه الحقيقة التي يقررها القرآن ، ويبتني عليها الإيمان :

« قل : كل من عند الله ، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

« إلا إنما طائركم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

« قل : طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون » .

« قل : كل من عند الله » بهذه الحقيقة الحاسمة صدعهم الوحي ليدّلهم على خطأهم في التصور ، وضعفهم في الإيمان ، كل ما يحدث من أشياء هذا الكون فهو من عند الله وحده ، ولا يشركه فيها أحد ، وكل ما يحدث من أشياء هذا الكون فهو حسن ، من صنع الله

الذي أحسن كل شيء خلقه ، وهو خير من فعل الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

كل ما يحدث من أشياء هذا الكون فهو حسن وهو خير ، بحسب نظام الكون العام ، ووفق حكمته الدقيقة الشاملة التي تشذ ولا تحيد ، ولا يشذ عنها شيء ولا يحيد .

وإذا كان بعض الحوادث الكونية يعدّ شراً وسيئة ، فأنما هو بحسب نظرة الإنسان ، وفي مقاييسه الخاصة ، من حيث أن ذلك الحادث يفقده محبوباً ، أو يمنعه رغبة ، أو يخيبه من أمل ، ولذلك فهو يشوءه ويسميه سيئة وشراً .

« قل : كل من عند الله » كل الحوادث على السواء ، ما سر الإنسان وما ساءه ، وما عده الإنسان حسنة سيئة ، أليست الحوادث التي تسوء الإنسان من الأشياء ؟ ، فكيف ينسبها مؤمن لغير الله خالق كل شيء ؟ ! .

وأقول : كيف ينسبها مؤمن . . . لأن القولة منقولة عن قوم يدّعون الإيمان ، وان كانوا ضعفاء في إيمانهم . انها حقائق أوضحها القرآن كل الإيضاح ، « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » ، ما

لهم لا يفقهون الحديث ولا يقتربون من فهمه ؟ ، وكأنهم لذلك لا يكادون يفقهون أي حديث .

هكذا تصحح الآية الخطأ الذي وقع في تصور بعض الناس ، وتعالج الضعف الذي تسرب منه إلى عقيدتهم ، وتحدد لهم المعنى الذي يجب أن يتصوروه ويعتقدوه .

الاختيار في الإنسان :

ثم تسير الآية الكريمة الثانية شوطاً أخرى في مدى هذا التصحيح .

الحسنة والسيئة كلتاهما من عند الله ، الحوادث كلها . . . ما أحب الإنسان منها وما كره ، جميعها من الله وحده ، هذا هو الحق الذي يجب أن يتصور وأن يعتقد .

غير ان حكمة الله التي جعلت القوانين والضوابط للكون ، واطلقت حكم هذه القوانين في الأشياء والحوادث ، فالايندّ منها شيء ، ولا يشذ بسبب حادث ، وكل ذلك وفق مشيئة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء وكل حركة ، هذه الحكمة قد شاءت أن تكرّم ابن آدم من جميع المخلوقات ، فجعلت له الخيرة في كل ما يفعل وما يترك ، ووفرت له مبادىء الاختيار في

ذلك ، واطلقت حكمه في أفعاله ضمن ما اطلقت في الكون من قوانين ، وإزقة هذه القوانين كلها بيد الله ، فلا ينفّذ قانون إلا بإرادته ، ولا يوجد شيء إلا بعطائه .

فالإنسان ـ على ما شاءت حكمة الله ـ مختار في أعماله يفعل أم يترك ، وعليه تقع تبعات أعماله حسنة أم قبيحة ، وهذه المسؤولية من متممات الخلافة التي جعلت لهذا الكائن في الأرض ، والقوامة التي جعلت له على الأشياء .

(وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . . .) [1] .

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض . . .) [2] .

فلولا هذا الاختيار وهذه المسؤولية اللذان جعلهما الله للإنسان لم يصلح أن يقوم بشؤون هذه الخلافة ، ولم يحسن أن يفيد من ثمار هذا التسخير وهذه القوامة .

الإنسان مختار . . . تام الاختيار في أعماله يفعل أم يترك ، وعليه تقع تبعات أعماله حسنة كانت أم قبيحة ،

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) لقمان : ٢٠ .

ولكن هذا الاختيار لا ينقص شيئاً من سلطات الله عليه وانفراده بتدبيره .

نعم ، الإنسان مختار ، تام الاختيار في أعماله ، ولكنه لا يختار إلا بمدد من الله ، ولا يفعل إلا بعطاء منه ، ولولا هذا المدد وهذا العطاء الذي يفتقر إليه في كل أن من أناته لوقف عن أي حركة ، ولسكن السكون المطلق عن أي تأفة .

الإنسان مختار ، تام الأختيار في أعماله ، ولكن الأجهزة المختلفة الفكرية النفسية التي تقوم بها عملية الاختيار كلها من الله ، والقوة التي يصنع الإنسان بها التصميم الكامل لاختياره كلها من الله ، والطاقة التي ينفقها الإنسان في إيجاد العمل كلها من الله ، والمدد المتصل لهذه الأجهزة ولهذه القوة ولهذه الطاقة وللأعضاء حتى يتم الإنسان العمل وينجزه كله من الله ، ولو نقص شيء من هذا الفيض ، ومن هذا العطاء لما استطاع إنسان أن يختار ، ولما استطاع أن يعمل ، وعلم الله محيط به في كل هذه التحركات ، وهذه التقلبات ، محيط به وبعمله وبغايته .

فلا جبر ولا تفويض ، فكلاهما انحراف عن خط الإسلام المستقيم ، ولكن أمر بين أمرين أو منزلة بين

منزلتين ـ كما يقول الائمة الطاهرون من أهل البيت (ع) وعلى هذا المعنى تجتمع آيات الكتاب وتتفق أحاديث الرسول (ص) .

الإنسان مختار في أعماله ، يفعل أم يترك ، وعليه وحده تقع تبعات أعماله حسنة كانت أم قبيحة ، وهذا الاختيار الكامل وهذه المسؤولية من متممات خلافته في الأرض ، وقوامته على الأشياء .

والحسنة في هذا المجال هي الطاعة . هي موافقة العمل لأمر الله الموحي به في الشريعة ، والسيئة في المعصية . . . هي مخالفة العمل لأمر الله ونهية الواردين في الشريعة .

ونتيجة لما تقدم ، فالحسنة والسيئة بهذا المعنى كلتاهما من فعل الإنسان ، وباختياره وعليه تبعاتها ، وسيوفى جزاءهما يوم القيامة كاملاً غير منقوص ، واقرأ معي ـ إذا شئت : (ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وان ليس للإنسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) [1] .

---

(١) النجم : ٣٨ ـ ٤١ .

التأديب العاجل :

وبعض الأعمال السيئة التي يعملها العبد يقتضي تأديباً عاجلاً ينزل به في هذه الحياة ليرتدع هو ، وليرتدع عن فعلته من سواه من الناس ، وبعضها يقتضي عقوبة سريعة تحل به لتخف عنه التبعات المؤجلة للذنوب ، وبعضها يقتضي أخذة عجلى تستأصله ليعتبر به وبعاقبته الآخرون . وبعض أعماله السيئة التي يرتكبها بأختياره له آثار سيئة لا ينفك عنها ولا يمكنه التخلص منها ، خصوصاً في القبائح العامة التي يتواطأ المجتمع على ارتكابها ، وكل ذلك مما تفرضه الحكمة ، للحد من انتشار المآثم وانتشار الفساد .

ومن أجل ذلك وضعت العقوبات الشرعية لبعض الجرائم التي يرتكبها الإنسان ، من حدود وتعزيزات ، وقد اتفقت قوانين الدنيا على جعل العقوبات الرادعة للإنسان عن مخالفة القانون ، ومن أجل ذلك ربما حلت بعض الأسواء ونزلت بعض الكوارث .

والقرآن الكريم يعلل بذلك كل ما يحدث في الكون من بلاء ، وكل ما يصيب الإنسان من مكروه والشواهد على ذلك من آيات الكتاب العزيز كثيرة.

يقول سبحانه :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير » [1] .

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [2] .

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » [3] .

« فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » [4] .

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وان تصبهم

---

(١) الشورى : ٣٠ .

(٢) الأنفال : ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣) الروم : ٤١ ـ ٤٢ .

(٤) الزمر : ٥١ .

سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » [1] .

« وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فأن الإنسان كفور» [2] .

وما أكثر الآيات الشاهدة على ذلك ، والآية الثانية من آيتي السؤال تدل على هذا الجزء من تصحيح المفهوم ، ان الحوادث الكونية التي تسر الإنسان والتي تسوءه وتحزنه كلها من عند الله ، وكلها بمشيئته وتقديره كما شهدت به الآية الأولى ، ولكن الحوادث السيئة لا تنزل بالإنسان جزافاً ولا تصيبه ظلماً ، وإنما هي تبعات أعماله التي اكتسبها باختياره فهو الجاني ، وهو المحاسب ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

من نفسك أنت بما ارتكبت من عمل استحققت به هذه التبعة ، وقد تستوجب بعدها تبعات أخرى فهلا تنظر لنفسك أيها الإنسان .

والخطاب في الآية للرسول (ص) والمراد به الأمة ،

---

(١) الروم : ٣٦ .

(٢) الشورى : ٤٨ .

فالرسول أرفع من أن يرتكب سيئة أو تصيبه تبعة ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحي ، وهو عميد الأسرة التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً بنص الكتاب .

وختاماً تقبل تحياتي وخالص دعائي .

سؤال :

نقلت الخطبة المنسوبة للأمام أبي عبد الله الحسين (ع) والتي ذكروا انه خطبها قبل خروجه من مكة وقد نقلها كثير من أصحاب المقاتل والسير فما هو مدى صحة نسبة هذه الخطبة وأوّد أن تشرحوا بعض مقاصد الامام (ع) فيها .

جواب :

صحة الخطبة :

روى هذه الخطبة السيد الأجل رضي الدين علي بن طاووس (ره) في كتاب (اللهرف) ، ونقلها الشيخ الجليل جعفر بن محمد بن نما في كتاب (مثير الاحزان) والثقة علي بن عيسى الاربلي في كتابه (كشف الغمة) ، ونقلت عن كمال الدين محمد بن طلحة ؛ وأثبتها العلامة المجلسي في الجزء العاشر من كتابه (بحار الأنوار) ، ونقلها الأثبات الذين لا يرتاب في صحة روايتهم وقوة أسانيدهم .

على أن في بلاغة الخطبة وعلوّ مضمونها وشدة شبهها بكلام المعصومين (ع) وخطبهم ما يوجب لنا الاطمئنان بصدورها عن الامام الحسين (ع) ، وصحة نسبتها إليه ، ويغنينا عن البحث في سندها .

مضمون الخطبة :

والخطبة ـ على وجازتها ـ تتضمن تصميماً وافياً لمنهج الحسين (ع) ووصفاً شاملاً صريحاً لسبيله الذي سار فيه ، ولم يحد عنه قيد انملة . . . وصفاً شاملاً صريحاً ، لا التواء فيه ، ولا تكتم ، ولا غموض ، ولا مواربة .

إنها ثورة . . . وأنه موت . . . وأنه توزيع اشلاء ، وتبديد أوصال ، فما عسى أن يظن الظانون أو يقول القائلون ؟ . . .

انها ثورة بشريعة الله ، ونير مناهجه ، أن تدوسها طغام بني أمية ، وطغاة متنفذيهم من أجل غايات سافلة ، وأهواء منحطة ، هي أحط ما يهوي إليه الإنسان حين يستسلم للشهوات . . .

وانه موت صريح ، وتقطيع أعضاء ، وتوزيع اشلاء ، في سبيل الله ، ودون كرامة الحق ، وكرامة الدين ، وكرامة الأمة .

أجل ، دون كرامة الأمة كلها ، وليست كرامة الحسين وحده ، ولكن الحسين (ع) هو المسؤول الأول الذي يجب أن ينهض ويستنهض، ويثور ويستثير ، ويموت ويدعو للموت .

دون كرامة الأمة كلها ، لو كانت الأمة تعي ، ولو كانت تشعر ، وليست كرامة الحسين وحده ، ولكن الحسين (ع) هو القائد الأعلى الذي يجب أن ينبه الوعي ويوقظ الشعور ، ويوجه الحركة ، ولقد جهر (صلوات الله عليه) بهذه الحقيقة في المدينة ، في أول يوم من نهضته ، لما قال لمروان بن الحكم ـ وقد لقيه هذا في الطريق ، وأشار عليه ببيعة يزيد ـ ، إذن وعلى الإسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد .

انها كرامة الله ، وكرامة الدين والحق ، وكرامة الأمة ، فيجب أن توقظ الأمة لتعي وتشعر ، وتتخذ موقفها الصريح الصارم ، ويجب أن يوضح لها السبيل ، وتوضع لها الخطة ؛ ومن غير الحسين (ع) يتولى ذلك ؟ ! .

وكانت أقوال الحسين (ع) كلها ـ منذ أولى ساعة اجتمع فيها بعامل المدينة ـ وأعماله ـ ، وحركاته وأسفاره ، وخطبه وكتبه ، ووصاياه ومواقفه إيقاظاً لوعي الأمة ، وتنبيهاً لشعورها ودلالة لها على الخطر المحدق بها ، وإيضاحاً للسبيل الذي يجب عليها أن تسلكه والغاية التي يجب أن تقصدها .

والخطبة التي يدور حولها الحديث بمثابة إعلان عام

للثورة ، وأنذار شامل للأمة ، وتعريف أخير لها بما يجب أن تعمل .

ان الموقف يحتم على الحسين (ع) وهو القائد الأعلى للأمة ، والممثل الأكبر للرسول (ص) ، والداعية الأولى للحق . . . ان الموقف يحتم عليه أن ينهض وأن يستميت ، وأن يعرض نفسه لأعظم الأخطار ، فما عسى الأمة أن تصنع ؟ . وكيف يجوز لها أن تسكت وأن تتخاذل ؟ ! ، وكيف يسوغ لها أن تواجه الموقف، بالتغاضي والبرود ؟ ! .

والملحوظ في هذه الخطبة ان الحسين (ع) لم يتعرض فيها للبواعث التي فرضت عليه هذه الثورة ، وحتمت عليه هذه الاستماتة ، وقد كان الجو المتلبد المكفهر ، والأوضاع القائمة القائمة أنذاك تغنيه عن التعرض والتفصيل . . .

والواقع انه لم يبق أحد من الأمة في الرقعة الإسلامية ، وفي الحجاز والبلد الحرام بالخصوص ، إلا وقد علم سبب النهضة وبواعثها الشرعية ، وقد كان الكثير من أفراد الأمة ووجوهها في العواصم الإسلامية يرتقبون العمل من مصدر العمل .

وقد قلت : إن أقوال الحسين وأعماله ، وحركاته واسفاره ، وخطبه وكتبه . ووصاياه ، ومواقفه منذ أولى ساعة اجتمع فيها بالوليد بن عتبة عامل الأمويين على

المدينة . . . كانت كلها إيقاظاً لوعي الأمة ، ودلالة لها على الخطر المحدق بها ، فلا ضرورة إلى اعادة ، ولا حاجة إلى تفصيل .

والخطبة قصيرة أملاها قصر الموقف الذي ألقيت فيه ، وصرامته . واقتضاؤه وجوب السرعة البدار في تلافي الاحداث .

والتاريخ لا يعين الموضع الذي ألقيت فيه الخطبة ، ولكن النداء العام في الخطبة ذاتها يدل على أنها ألقيت في محفل عام .

فاتحة الخطبة :

يقول الرواة : لما عزم الامام على الخروج إلى العراق قام خطيباً ، فقال :

« الحمد لله . وما شاء الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على رسوله وسلم » .

وبهذه الجمل القصيرة يبتدىء (ع) خطبته القصيرة ، ولكنها جمل جمعت فاوعت . . . فقد احتوت مطلق الحمد لله ، ومطلق الثناء عليه ، ومطلق التسليم له ، ومطلق الإستعانة واللجوء إليه ، وهذه هي العدة الكبرى التي يتدرع بها القائد الذي يستمد أصل قيادته

وروحها وجوهرها ومعناها من السماء .

والجمل ـ بذاتها ـ موحية بمضمون الخطبة ، فالتسليم المطلق لله ، والإستعانة المطلقة به ، واللجوء المطلق إليه هو مضمون الخطبة كلها ، ومضمون النهضة ، وشعار الثائر والثورة ، والجمل ـ بعد كل ذلك ـ لافتة قوية ، تلفت الفكر ، وتسترعي الانتباه ماذا وراء هذا الاختصار الجامع ، وهذا الطي السريع البليغ ؟ .

فكرة الامام (ع) عن الموت :

« خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة » .

وبهذه الكلمة الحمراء يفتتح حديثه هذا الذي يوجهه إلى الناس ، ويعلن لهم به نهضته ، ويوضح لهم به المنهج الذي سيمضي فيه ، منذ أول قدم يرفعها من البيت الحرام ، ولا يفارقه أبداً حتى يبلغ الغاية ، وهي براعة استهلال عجيبة المعنى ، غريبة الوقع على الذين يهون عليهم كل ما يفوتهم من معاني العزة والكرامة إذا سلمت لهم الحياة . . . (ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما

يعملون) [1] ، وهذه نقطة الافتراق بينه وبين هذا الفريق من الناس .

انه يستميت ويدعو الناس إلى الموت ، ولكنه موت يهب الحياة الخالدة الكريمة له ولألوف الأجيال التي تتبع خطوة من الناس . . .

انه يستميت ويدعو الناس إلى الموت ، ولكنه موت يقيم الحياة ويجعلها ذات معنى خطير كريم ، وبدونه فلا قيمة للحياة .

« خط الموت على ولد آدم مخط للقلادة على جيد الفتاة » .

وإذا كان الموت ناموساً طبيعياً لا معدل عنه ولا محيص من الخضوع له ، فليختر الإنسان لنفسه أفضل الميتات وأعظمها غنىً لدينه وكرامته إذا كان في موضع التخيير . . وماذا غير الموتة الكريمة إلا الحياة الذليلة ، أو الموت الذليل ؟ .

« وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف » .

---

(١) البقرة : ٩٦ .

أسلاف مطهرون ، وجُدوا للحق ، وعاشوا له ، وجاهدوا لنشره ، وماتوا في سبيله ، وسبقوا إلى المقامات الرفيعة والمنازل الكريمة بسببه ، وخلف يحمل رسالتهم ، ويتم شوطهم ، ويسير إلى غايتهم ، فهو شديد الوله إليهم ، وإلى الحق الذي مثّلوا ، وإلى الغايات التي بلغوا . . . شديد الوله إليهم وإلى لقائهم ، وأن كلفه ذلك بذل الحياة وما فيها . وما تعني الحياة وما فيها إذا كان الموت هو الذي يحقق للإنسان غايته ، ويتم له سعادته ؟ .

هذه هي فكرة القائد العظيم عن الموت ، وهذا هو شوقه الملحّ إليه وإلى لقاء سلفه السابقين من قادة الحق .

والمقادير التي ستجري في هذا السبيل ، وستتم الشوط إلى نهايته ، وهذا بلا ريب غيب من الغيوب ، ولكن مصرع الحسين (ع) في كربلاء ، لم يعد خفياً كل الخفاء ، فهو من اعلام النبوة ، وقد أنبأ به جده الرسول (ص) في عدة مواضع ، ولكثير من الصحابة ، وكذلك أبوه أمير المؤمنين (ع) ، وقد حُفظت هذه الأنباء ودونت لدى كثير من الخاصة ، والحسين (ع) يعلن هذا النبأ في خطبته بين الناس لينبه غافلاً ويعلم جاهلاً : إن الرسالة الإلهية في تهديد وفي خطر ، حتى في شخص ممثلها العظيم .

علم الامام بمصرعه :

« وخير لي مصرع انا لاقيه » .

نعم ، لقد قضي الأمر ، وأبرم المقدود ، وتمت الخيرة ، وبقي التنفيذ ليومه القريب ، الذي ستتم فيه سعادة السعيد وشقاء الشقي . . . لقد قضي الأمر ، واختير المصرع ، وعين الموضع ، وسبق علم الله بكل أولئك .

« كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني اكراشاً جوفاً واجربة سغبا » .

وهذه كلمة يقصد بمثلها التعبير عن المستقبل المحقق الوقوع ، وعسلان الفلوات ذئابها ، وقد يراد مطلق سباعها . وملء اكراشها الجوف ، وأجربتها السغب تعبير عن شدة نهمها وكثرة أكلها دون محام ولا دافع عن الأعضاء المقطعة .

ولعل الامام (ع) يعني بها ـ مجازاً ـ السيوف والرماح التي توزع جسده الطاهر .

ولعل العبادة كناية عن بقائه بالعراء مدة تتعرض

القتلى في مثلها لتناول السباع ، ونهب الأوصال دون دفن ومواراة .

« لا محيص عن يوم خط بالقلم » .

لا محيص عنه أبداً ولا معدى ، ولا حكم للإنسان فيه بتقديم ولا تأخير ، وإذن فليسّلم المؤمن لقضاء الله تسليماً كاملاً ، وليرغب في ما عند الله رغبة صادقة ، فما عند الله خير وابقى ، وليتأهب لهذا اليوم المحقق القريب بأحسن أهبة وأفضل عدة .

« لا محيص عن يوم خط بالقلم » .

وفي هذا ما يخفف على النفوس العظيمة كل شدة ، ويهون كل بلاء . ويجوز بها كل امتحان ، وقد قال (ع) في بعض مواقفه العصيبة يوم الطف : (هون علي ما نزل بي انه بعين الله) . ويقول اليوم ، وهو مزعج مخرج عن حرم الله وحرم رسوله :

« رضا الله رضانا أهل البيت . نصبر على بلائه ، ويوفينا أجور الصابرين » .

هذه الدرجة العظمى من التسليم لله التي لا تدانيها درجة ، وهذه النفوس المطبوعة بحب الله ، المتعلقة برضاه التي لا تسمو إليها نفس ، وهذه الغاية من الاعتزاز ببلاء

الله والامتحان في سبيله التي لا ترتفع إليها غاية . . . هذه بعض الخصائص التي يمتاز بها أهل البيت الطاهر (ع) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم من الاثم .

درس في التربية :

وهذا درس عال بليغ يلقيه الامام (ع) في خطبته على جماهير المسلمين عامة ، وعلى أصحابه وأهل بيته ، خاصة الذين سيرافقونه في سبيله ويلتزمون منهجه ، يربي به نفوسهم ، وينير لهم بصائرهم ، ويرتفع بهم وبنيّاتهم إلى الغاية العالية المستطاعة لأمثالهم . . . إلى الغاية الرفيعة التي سيبلغونها ، والمرتقى الذي سيصلونه . . .

انه اشعاع النفس العظيمة المنيرة بالحق ، والقلب الكبير المضيء بالهدى ، ينير للناس نفوسهم ، ويضيء لهم قلوبهم ، ويبين لهم غايتهم ، والناس يقبسون من هذا النور بمقدار ما لهم من الأهلية والاستعداد . أما النفوس المعتمة ، والقلوب الغلف ، فلا تفيد من النور شيئاً ، ولا تهتدي سبيلاً ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » [1] .

---

(١) النور : ٤٠ .

انه يعّد النفوس التي ستشاركه دعوته ، والأرواح التي سترتفع إلى الملأ الأعلى مع روحه ، والأجسام التي ستتسابق وتتهاوى في ميادين الشهادة بين يديه . والدماء التي ستختلط بدمه ، فتكون معه بلسماً لجراح الدين . . .

انه يعد الفئة التي ستسمو بها البصائر والنيات والأعمال ، حتى تبذّ قوافل الشهداء ـ من سبق منهم ومن لحق ـ .

« رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفيّنا أجور الصابرين » .

والصابرون على البلاء كثيرون ، وكلا يوفيه الله أجره ، ولكن المعتزين ببلاء الله الذين لا يرضون إلا رضاه ، هم القمة ليس فوقها مرتعى ، ولا فيها مطمع .

« لن تشذ عن رسول لحمته ، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس ، تقر بهم عينه ، وينجز بهم وعده » .

واللحمة ـ بضم اللام ـ هي القرابة ، ولحمة الرسول (ص) هم أهل بيته الذين أذهب الله ـ في كتابه ـ عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وقرباه الذين فرض على الأمة مودتهم ، وجعلها حقاً لازماً ، يؤدون به أجر

الرسالة ، وثقله الذي قرنه بالكتاب ، وخلفّه معه في الأمة ، وضمن لها ما ان تمسكت بهما لن تضل بعده أبداً ، وقال لها : (انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) .

هذه هي لحمة الرسول (ص) فكيف تشذ عنه ؟ . وكيف لا تجمع له في حظيرة القدس ـ وحظيرة القدس هي الجنة ـ تقرّ بهم عينه ، وينجز بهم وعده ؟ ؟ .

قال هذا اعلاناً للخطة التي سيمضي عليها إلى آخر الشوط ، وتعريفاً للأمة بواجبها الذي تقوم به إذا شاءت أن تقوم بالواجب ، وتبييناً للعاقبة الكبيرة المضمونة بضمان الله وضمان رسوله له ولانصاره . ثم هتف بالناس يستنصرهم للحق ، ويحدّد لهم الموعد ، كي لا يعتذر غافل ، أو يحتج جاهل :

دعوة للبذل والفداء :

« ومن كان فينا باذلاً مهجته ، وموّطناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا فأني راحل مصبحاً إن شاء الله » .

فالخطة هي بذل المهجة ، والعاقبة هي لقاء الله ، والفوز بكرامته ، والمعركة معركة حق وباطل ، وكرامة وهوان ، والموعد قريب قريب . والغاية هي رفع راية الحق

ما دام للحق وجود ، وتأسيس الثورة على الظلم لكل ثائر من العالمين . فمن شاء أن ينصر الحق ، ويناجز الهوان ، ويرتفع إلى الكرامة الكبرى التي لا انقضاء لها ، فليرحل معنا ، فأني راحل مصبحاً إن شاء الله .

سؤال :

ذكر الفقهاء لابن الزنا أحكاماً وتبعات يفترق فيها عن ابن الرشدة كما يقولون . منها عدم ميراثه من أبيه وأمه الزانيين ولا من أقربائه بواسطتهما . ومنها عدم استيهاله لأن يكون قاضياً أو مرجعاً في الفتيا أو أماماً للجماعة أو الجمعة إذا توفرت فيه الشروط التي تشترط لذلك .

فما هو الوجه في هذه التفرقة ، والمرتكب للجريمة إنما هما ابواه فكيف يتحمل هو التبعات .

جواب :

محاورة :

هذه محاورة جرت بيني وبين شاب من أهل . . . ، وقد وجد بها ذلك الشاب تسرية لبعض هواجسه ، أسوقها إليك على ما بقي من أحاديثها في ذاكرتي دون تزويق ودون طلاء ، فقد تجد فيها جواباً لمسألتك ـ أيها الأخ الكريم ـ :

كنت منفرداً لما دخل عليّ ذلك الشاب وعلامات الاهتمام بادية في وجهه ، ومخائل الذكاء ظاهرة من حركاته وإشاراته . . .

سلم باحترام ، وجلس بأدب ، وأطرق قليلاً ثم تنحنح وقال :

ما جنايتي أنا يا سيدي ؟ .

فابتسمت له وقلت : وما علمي أنا بجنايات الناس يا عزيزي ؟ ! ، ومن أنت لأعرّفك ذنبك إذا كنت مذنباً ، وإذا كنتُ أنا عارفاً به كما تظن ؟ ! .

فقال : أنا (فلان) ، من عشيرة (كذا) ، ومن

أهل قرية (كذا) . . .

فقلت : ولا أزال في حاجة إلى مزيدٍ من التعريف ، فمن أبوك ؟ .

فأطرق الشاب خجلاً ، وسمعته يبتلع بقايا ريقه ، وقال بصوت خافت : هذا مصدر بليتي . . . ، وهو كذلك سبب سؤالي عن جنايتي ، ليس لي أب يعرفني به الناس . . . (إنني . . . ابن زنا) ، ولكن ما ذنبي أنا إذا كان أبواي قد أجرما بفعلتهما ؟ ، ما هو ذنبي أنا لتحرمني شريعة الله العادلة من حقوقٍ شرّعها الله لجميع الناس ؟ ألست أنا من الناس ؟ .

لماذا لا أرث قريبي إذا مات ، كما يرث الناس أقرباءهم إذا ماتوا ؟ . ولماذا لا تقبل شهادتي إذا كنت عادلاً كما تقبل شهادة العدول الآخرين ؟ . ولماذا لا أرشح للجهات التي يرشح لها أمثالي إذا أنا ساويتهم في الشرائط التي تعتبرها الشريعة ما عدا طهارة المولد ؟ فلا أكون أماماً في جماعة ـ مثلاً ـ ولا في جمعة ، ولا أكون أهلاً لقضاء ولا لإفتاء ، ولا ولا ، ما هو ذنبي لأحرم من كل هذه الحقوق ؟ .

كيف يعلم ابن الزنا :

فقلت : وكيفَ عرفتَ أنك ابن زنا ، لتجهر هذا الجهر ، وتسأل هذا السؤال ؟ .

فقال ـ وهو يتمتم ـ : هذا ما يقوله الناس عني . . .

فقلت : إنني سألتك كيف علمت ذلك ، ولم أسألك عما يقوله الناس عنك ، وانهم ليقولون منكراً من القول وزورا .

ايستطيع هؤلاء القائلون أن يأتوا بأربعة من الشهداء لإثبات هذه الفعلة الشنعاء النكراء ، ثم إثبات أنك من نتاج هذه الصلة غير الشرعية ؟ . أيستطيعون ذلك ؟ ، فهذه هي البينة التي يشترطها دين الإسلام لإثبات هذه الجريمة . . .

أما الوسيلة الثانية لإثباتها فهي الإقرار . . . وللإقرار بهذه الجريمة توابعه ولوازمه في أنظمة الإسلام .

إن الناس ليقولون قولاً عظيماً ، ويرتكبون جريمة موبقة ، وإنك لترتكب مثل جريمتهم حين تردد قولتهم دون علم ودون بيّنة . . .

ان الزاني غير المحصن إذا ثبت زناه وانتفت في حقه

الشبهة ، ولم تسبق منه التوبة ، يجلد مائة جلدة في قانون الجنايات الذي شرعه الإسلام ، أما من يقول هذه القولة دون بيّنة فانه يجلد ـ في شريعة الإسلام ـ ثمانين جلدة لقذفه الأب ، ويجلد كذلك ثمانين جلدة لقذفه الأم ، ويعزّز بما يراه الحاكم الشرعي لإهانته الوليد الذي نشأ عن هذه الصلة . . .

واقرأ ـ إذا شئت ـ قول الله ـ سبحانه ـ في كتابه : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »[١] . وقوله سبحانه : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون ان الله هو الحق المبين »[٢] .

أرأيت ؟ أرأيت ؟ .

---

(١) النور : ٤ ـ ٥ .

(٢) النور : ٢٣ ـ ٢٥ .

جلد ثمانين جلدة ، وإهدار كرامة وحرمة ، فلا تقبل له شهادة أبداً ، ولا يرشّح للمقامات الرفيعة التي يُرشح لها العدول من المسلمين ، وطرد عن رحمة الله في الدنيا وطرد عن رحمته ورأفته في الآخرة ، وشهادة عليه من جوارحه بما اكتسب ، واستحقاقه العذاب العظيم بما احترم ، هذه العقوبات التي ترصدها هذه الآيات الكريمة للذين يرمون المحصنات المؤمنات ، وبديهي ان تتضاعف العقوبة إذا رمي الرجل مع المرأة ، وبديهي أن تزداد شدّة وتغليظاً إذا أصابت رميته الوليد في ما أصابت .

وإذا كان عظم العقوبة في القانون دليلاً على عظم الجريمة في رأيه تبيّن لنا أن جريمة القاذف قد تكون أكبر من جريمة الزاني في نظر الإسلام . . . والناس يجهلون فضاعة هذه الخطيئة فيستسهلون أمرها ويستسيغون ارتكابها ، ويستخفون بآثارها .

غير أن الآثار الواقعية تعمل عملها ، علم الناس بها أم جهلوا ، وعدل الله يرصد الجزاء الوفاق لانتهاك محارمه ، جدّ الناس بها أم هزلوا ، والذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بالفاحشة دون علم ودون بينة صحيحة من أشد المجرمين عقاباً وأعسرهم حساباً .

لماذا أرصد الدين هذه العقوبة :

فأطرق الشاب يفكر ، وأمهلته قليلاً ثم قلت :

أو تعلم ـ أيها العزيز ـ لماذا أرصد الدين هذه العقوبة ، ولِمَ حذّر هذا التحذير ؟ لقد أرصد الدين هذا الإرصاد ووقف هذا الموقف الحاسم من أجلك أنت .

نعم من أجلك أنت ، كي لا تلوك الناس صلتك بأبويك وصلتك بالمجتمع المسلم الطاهر ، كي لا يجترىء ذو لسان فيقول : إنه نشأ من صلة دنسة ، فلا يستحق أن يندمج بالمجتمع الطهور . أفلا يرضيك هذا الاحتباط الشديد لك أيها العزيز ؟ .

من أجلك أنت هذا الإرصاد وهذا التحذير ، ومن أجلِ أبويك أيضاً ، فان الإسلام يعزّ عليه أن يوصم فردان من أبنائه ، وعضوان من مجتمعه بهذه الوصمة التي تبعدهما عن ظهر الإسلام ، ونقاوة مجتمعه ، وقد تجرّها الفرية عليهما إلى إتيان الجريمة وأن كانا لم يفكرا في إتيانها من قبل .

بل ومن أجل القاذفين أنفسهم ، فإن هذا الدين يكره لأحد من أتباعه أن يمضغ الفاحشة بفم ، ويتجاهر بقولتها بلسان ، ويكره له أن يُثير حقداً ، أو ينطوي على ضغينة .

هكذا يريد الإسلام لمجتمعه أن يكون رفيعاً عن الحقد ، نزيهاً عن قالة السوء بعيداً حتى عن توهّم السقطة والخوض في أحاديثها .

والعقوبة التي ينزلها الشرع بأبويك حين تثبت عليهما الجريمة ، وتنتفي في حقهما الشبهة ؟ لعل اجترامهما في حقك له الأثر الأكبر فيها ، والحظ الأوفر منها ، أفتدري ما هو اجترامهما في حقك ؟ .

انهما هيئا لنشأتك هذا الجو النجس ، وتحكّما في مصيرك هذا التحكم الشائن ، وهي ـ بعد ـ جريمة اجتماعية ، فقد شلّا من المجتمع عضواً صالحاً ، ودنسا نفساً زكية ، أفلا يستحقان ـ من أجل ذلك ـ العذاب الأليم ؟ ، الا يستحقان أن لا تأخذنهما رأفة في دين الله ـ كما يقول في كتابه ـ ، وأن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ؟ ! .

إنها جريمة فردية ، وجريمة إجتماعية ، كما هي جريمة في حق الشرع الذي حرّمها وتوّعد بالعقاب عليها ، وليست جريمة شخصية فتسقط بالتراضي بين الرجل والمرأة ، كما يقول المشرعون الوضعيون ، ولست الآن بصدد بحث المسألة من هذه النواحي ، وحسبي أن أشير إليها أشارة .

من أجلك أنت ، ومن أجل الدفاع عنك ، والدفاع عن صلتك ومركزك في المجتمع ، ومن أجل المجتمع المسلم الحي الذي يعزّ عليه أن يُشل عضو صالح من أعضائه ، وأن يبتر جزء قوي من أجزائه ، من أجلكما كل هذا الاحتياط ، وكل هذا التشدد .

وإذا لم تجد هذه المحاولات ؟

ولكن . . .

إذا لم تجد فتيلاً كل هذه المحاولات ، وكل هذه الاحتياطات ، والتقى الرجل المسعور الذي لا يأبه لحرمة الله ، وحرمة الدين ، وحرمة الاجتماع ، بالأنثى التي تشبهه في ذلك أو تزيد ، وكانت الصلة النجسة الدنسة ، وانعقدت النطفة كما أرادتها العهارة والدعارة ، فماذا يريد الناس من الإسلام بعد ذلك ؟ .

أيريدون من الإسلام أن يدمج هذه النطفة بالمجتمع الطهور ، فلا يميز الفرد الصحيح عنه بحكم ولا بميزة ؟ ! .

أيريدون من الإسلام أن يتغاضى عن القصور الذاتي لهذا المخلوق ، عن قصوره الذي يقعد به عن المجالات العالية التي يبتغيها الإسلام لإبنائه ؟ ! .

أيريدون منه أن يتناقض فلا يجعل فارقاً بين الصلة التي أقرها واعترف بها والصلة الأخرى التي أنكرها وشدد في النكير عليها ؟ ! ، أيريدون منه أن يصنع كذلك ليقولوا بعد هذا : إن الإسلام قد تناقض ولم يجر مع الاصول التي سنها لتشريعه ؟ ! .

يقولون : أي ذنب جنى هذا المخلوق ؟ !

لا . لا . إنه لم يجن أبداً ، ولم يرتكب إثماً ، وسيوّفى جزاء عمله إذا عمل صالحاً ولا يظلم فتيلاً من جزائه ، ولا يبخس مثقال ذرة من أعماله ، ولا يحمّل شيئاً من جريمة أبويه التي اقترفاها .

أما أن شهادته لا تقبل وان كان عدلاً ، وإنه لا يصلح ـ في موازين الشريعة ـ لإمامة الجمعة والجماعة ، ولا يتولى القضاء ولا الافتاء ، أما هذه الاحكام التي قررها الشارع في حقه ، واستثناه فيها دون غيره ، فليست عقوبات أرصدتها له الشريعة ليسأل الناس عن جنايته التي ارتكبها واستحق العقوبات من أجلها .

بل لأن قبول الشهادة واستحقاق الامامة ، وتوّلي الولايات العامة احكام لن تثبت إلا بشروط ، ولن تعطى إلا بقابليات ، وقصور هذا المخلوق في ذاته أمر لا ينكره أحد ، وبعض القوانين الوضعية المتزنة تعترف بذلك إلى

حد ما والفارق أن القوانين لا ترتب أثراً على هـذا الاعتراف ، لأنها لا تنظر في تشريعها إلى الركائز العميقة في الإنسان . . .

أما الدين ـ ودين الإسلام على الخصوص ـ فلا بد وأن يرتب الأثر ، وما دامت نظرته في التشريع لا بد وأن تتغلغل في الأعماق وتسبر الاغوار .

ان الإسلام لا يهوي بهذا الإنسان في مستوى يمكنه أن يصل إليه بالاختيار ، ولكنه لا يرتفع بد إلى أسمى مما يدرك ، ولا يذهب به إلى أبعد مما ينال . . . ، انه يبوئه المكانة التي تخوّله إياها طبيعته ، وكفى بذلك نصَفاً ، وكفى بذلك عدلاً .

أما الميراث ، فأي حق له فيه ما دام الإرث فرعاً عن ثبوت الصلة في النسب ، وما دامت صلته تلك غير ثابتة في نظر الشارع ؟ . وليس منع الميراث حكماً خاصاً به وحده . فأن أباه وأمه لايرثانه كذلك إذا مات قبلهما كما لا يرثهما هو إذا ماتا قبله ، وهكذا كل قريب له بواسطتهما إذا مات القريب قبله أو مات هو قبل القريب ، فلا توارث من الجانبين .

ليس لذلك المخلوق المسكين ذنب يا عزيزي ، وليست تلك الاحكام جزاء على ذنب ، ولكنها الطبيعة القاصرة الناقصة تتحكم في صاحبها ، وتقعد به في

المجالات ، وما يصنع الشارع تجاه الأمر الواقع إلا أن يعطيه القدر الذي يستحق ؟ !

أما أنت . . . أما أنت فأرجو أن تعدّل من موقفك في الحياة ، ومن نظرتك إلى نفسك .

لا . لا تلبس حياتك هذا القناع الأسود ، الحالك السواد .

لا . لا تنظر إلى نفسك هذه النظرة الحاقدة ، البالغة الحقد ، ولا تسأل عنها هذا السؤال الجائر ، الشديد الجور .

لا . لست ابن زنا وأن لم تعرف لك أباً منذ نشأتك ، وأن قال الناس عنك وقالوا ، وأن أكثروا فيك وأقلوا . ولو أنك ضمنت لي بقية الشرائط لقبلت شهادتك أيها العزيز . . . ، فهل أنت فاعل ؟ .

فابتسم الشاب إبتسامة عريضة عميقة ، ظننتها ابتسامته الأولى في عرضها وعمقها ، ثم ودعني وقام ، وقد رأيته يثبّت قدميه على الأرض أكثر منه حين دخل .

سؤال :

ما هي الأخوّة الإسلامية التي دعا إليها محمد(ص) ؟

وما هو مفهوم الحب في الإسلام ؟

وما هو معنى صلاة المسلم وصومه وتقديسه لله ؟

أسئلة وجهها طالب عراقي في كلية الطب من جامعة كاليفورينيا الأمريكية .

جواب :

المجالات الروحية في الإسلام :

انتهز الفرصة لأقدم لك ـ أيها العزيز ـ ولزملائك النجباء الذين شاركوك في المسألة تحية أخ لكم من وراء البحار يهمه اجتماعكم ويعنيه سؤالكم ، ويطيب له الحديث إليكم ويطيب له كذلك أن يتقبل نقدكم لحديثه هذا الذي تسمعون ، على أن يرسل إليه النقد باسمه الصريح ، وبعنوانه الكامل في النجف ـ والعراق . . .

وأولى ناحية أود أن أبدأ الحديث بها هو المعنى الذي قد يوحي به سؤالكم .

الإخوة في الإسلام . . . الحب . . . الصلاة . . . الصيام . . . التقديس لله . . . ، هذه هي مجالات سؤالكم ـ أيها الاخوة ، وهي بذاتها المجالات الروحية التي تهتم بها المسيحيّة الموجودة أشد الاهتمام ، بعد عقيدة الصلب والفداء ، حتى تكاد تحصر نشاط الدين بها وبما يشبهها أو يقترب منها من مجالات الروح . فهل معنى السؤال ان الإسلام يتبّع هذه الخُطة كذلك فيقصر نشاطه

في مجالات الروح ؟ .

إذا كان هذا هو معنى السؤال ، فإني أبادر فأقول ، هذه نظرة لا يرتضيها الإسلام .

ان الإسلام يرى أن الدين ضرورة للحياة وضرورة للإنسان ، وهو يعلم ـ حق العلم ـ ان الإنسان كيان واحد ، يتألف من جسد وروح ، ولا استقلال لأحد هذين الخلطين عن الآخر ، ولا غناء ولا جدوى في أحدهما بدون الآخر ، ولا يستقيم الإنسان ولا تستقيم حياته حتى يتولى الدين تهذيب كلّ من الروح والجسد تهذيباً قائماً على وحدة هذين الخلطين ، وعدم استقلال أحدهما عن صاحبه في الوجود ، وعدم استقلاله عنه في الحركة والتصرف والسلوك ، والأخذ والعطاء .

وبعبارة جامعة : الإسلام يرى أن مجال نشاط الدين هو جميع نواحي الإنسان في مختلف المجالات التي تقع ضمن اختياره وسلوكه في هذه الحياة .

وتوضيح هذا المجمل : ان الله قد جعل لكل شيء من محتويات هذا الكون العظيم نظاماً خاصاً دقيقاً يتبعه في حياته ويرتقي به إلى ذروة كماله . . . لكل كائن من موجودات هذا الكون ، صغيراً كان أم كبيراً ، وحياً كان أم جماداً . . . حتى الذرة والخلية ، وحتى الجزيئات التي

تتألف منها الذرة والخلية . والدين هو النظام الخاص الذي يتبعه الإنسان في حياته ويرتقي به إلى ذروة كماله : . . هو السنة الكونية التي جعلها رب الكون لهذا المخلوق أسوة له بسائر الموجودات : (افغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟) [1] .

ونتيجة لذلك : فلا بد وأن يكون الدين شامل النظرة لنواحي الإنسان كلها ، بحيث لا يختصّ بناحية دون ناحية ، ولا ينحصر بتهذيب روح أو جسد .

لا بد أن يكون الدين شامل النظرة كذلك ، لأنه سنة كونية للإنسان ، والسنة الواضحة للنظم الكونية كافة ، انها تتولى الكائن بالتوجيه في مختلف جهاته .

على ان وحدة الإنسان لا تقبل هذه النظرة ، لأنها تحاول أن تفكك بين أجزائه .

وليس معنى قولي : « هذه نظرة لا يرتضيها الإسلام » ، ان الإسلام لا يهتم بتهذيب الروح .

بل معنى ذلك : ان الإسلام لا ينحصر نشاطه بهذه الناحية ، ولا تختص نظرته بها .

---

(١) آل عمران : ٨٣ .

ان الإسلام يهتم بتهذيب الروح اهتماماً بالغاً ما عليه من مزيد ، ولكنه ـ إلى هذا الاهتمام البالغ بالروح ـ يوفي كذلك للجسد نصيبه التام من الرعاية والتهذيب .

وبعبارة ثانية هي أدنى إلى الصواب وأدل على المقصود ـ : الإسلام يوفي الإنسان حظه الكامل من الرعاية والتوجيه في مختلف جهاته ، ما تعلق من ذلك بالجسد وما تعلق بالروح .

والناظر المتعمق في تعاليم الإسلام وفي تشريعه يجد أن هذا الدين لم يفرد أبداً ناحية من هاتين عن أختها ، فالتعليم أو التشريع الذي يتولى فيه تربية الروح وتهذيبها ، يجد الناظر المتعمق فيه ناحية أو أكثر يتولى فيها كذلك رعاية الجسد وايفاءه حقه من التوجيه ، وكذلك الأمر في العكس .

وقد أطلق في ذكر هذه الجهة عامداً ، فإن الإيجاز فيها قد يسبب ارتباكاً في الموضوع ، ولعل بعض المشتركين في السؤال ممن يرى صواب هذه النظرة ، ولذلك فلا مناص من ذكرها وتبيين قولة الإسلام فيها .

عقيدة المسلم بالله :

وبعد هذا أعود إلى سؤالكم - أيها الاعزّة - : عن الإخوة الإسلامية التي دعا إليها محمد (ص) وعن مفهوم الحب في الإسلام ، وعن معنى صلاة المسلم وصومه وتقديسه لله .

وإيضاح هذه المفاهيم وتحديد أبعادها يستدعي منا أن نقف هنا وقفة قصيرة على عقيدة المسلم بالله ، ثم على صلته العميقة الوثيقة به . فإن عقيدة المسلم بالله هي المرسى الأعظم الذي ترسو عليه كل تعاليم الإسلام ، وترتكز عليه كل مفاهيمه ، وصلة المسلم بالله هي المصدر الأساس الذي تستمد منه كل صلات المسلم في هذا الكون وتلتقي عنده كل مناسكه وعباداته .

وعقيدة المسلم بالله تعود به في أول الأمر إلى هذا الإحساس العميق الذي يحسّه كل إنسان باضطراره إلى قوة مسيطرة عليا بيدها الكمال والنقص ، وبأمرها النفع والضرر ، وبإرادتها المحيا والممات .

إلى هذا الإحساس الفطري العميق الذي يحسّه الإنسان كما يحس بألم الجوع والعطش عند فاقته إلى الطعام والشراب .

إلى هذا الإحساس الذي لا يكذب الإنسان أبداً ، لإنه من نداء الفطرة ، ومن هتاف الطبيعة المكينة في خلق الإنسان . . . أرأيت الفطرة كذبتك في يوم من الايام ؟ .

إلى هذا الإحساس من الذي يحسّه الإنسان (أي إنسان) شريطة أن يكون سليم الفطرة ، سليم الشعور بنداءاتها وأحكامها .

بلى ، قد ترين على الفطرة اهواء وتقاليد وأراء مسفة حتى تخرسها فلا تفوه بحكم ولا تجهر بصوت ، أو هي - بالأحرى - تمنع الإنسان عن سماع نداء الفطرة من وراء هذه الأغلفة الكثيرة المتكاثفة .

ولكن هذه الغشاوات إنما تملك العمل إذا كان الإنسان مُرخى العنان في مسارب هذه الحياة ، فإذا وقع في مضائق الأمور ، وأحاطت به شدائدها ، وانسدّت عنه أبواب الحيل فيها ، خمدت أصوات كل هذه المؤثرات عن أي نأمة ، وبكمت عن أي قول ، وسمع الإنسان صوت الفطرة عالياً جلياً لا جمجمة فيه ولا خفاء . . .

« هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه

لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . . . »[1] .

إلى مثل هذه الأزمات الكثيرة التي يتكرر وقوعها في هذه الدار يعود القرآن بهذا الإنسان ليسمعه حكم فطرته إذا كان شاكاً . ووقوع المرء في واحدة منها يكفي لحصول التجربة واليقين بهذه النتيجة .

ويعترف بهذه الفكرة فريق من علماء النفس فيقولون : التدين غريزة من غرائز الإنسان ، لأنّا وجدنا التدين منتشراً بين جميع الأمم ، وفي عامّة المجتمعات ، حتى عند أبعد الناس كلهم عن الحضارة وأقربهم كلهم إلى الحياة البدائية .

ويعترف بها كثير من مؤرخي الأديان فيقولون : الآثار التي تركها الإنسان تشهد أن ظاهرة التدين قد لازمته في جميع العصور على رغم التقلّبات التي مرّت به ، والتطورات التي تعاقبت عليه .

وعقيدة المسلم بالله تعود به ـ ثانياً ـ إلى دلالة هذا الكون العظيم على مكوّن ودلالة هذه الحركة التي تشمل

---

(١) يونس : ٢١ ـ ٢٣ .

جميع أشياء الكون وأجزائه على محرك .

ودلالة هذا النظام الرتيب العجيب الذي يعمّ كل ما في الكون من صغير وكبير وظاهر وخفي وقريب وبعيد على منظم .

ان هذه كلها آثار لا بدّ من مؤثر . . . هذا هو منطق البرهان الذي لا يتخلف أبداً ، وهذا هو قانون السببية الثابت في بداهة العقول ، والمرتكز حتى في اذهان الأطفال ، (لكل كائن ممكن سبب موجد) فأن العدم لا يثمر وجوداً . وضم صفر إلى صفر لا ينتج عدداً .

أما أزلية المادة وأزلية العالم فهو وهم يسخر منه صحيح البرهان ، ويبُطله القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية .

فأن هذا القانون يثبت لنا أن العالم محدودُ الآخر لأنه محدود الطاقة ، وإذا ثبت أنه محدود الآخر فهو محدود الأول دون ريب ، لأنه لو كان أزلياً لا بداية له لكان الفناء قد أدركه منذ أمد بعيد ، ما دام محدود الآخر ، وما دامت طاقته المتناهية لا تتسع لهذه الآماد الأزلية التي لا بداية لها .

والبرهان الصحيح يثبت لنا ان المادة ممكنة الوجود بذاتها ، لأنها متغيرة متحولة ، ولو كان الوجود ذاتياً لها

لاستحال عليها هذا التغير والتحول . . . ومعنى كونها ممكنة الوجود ، أنها يستحيل أن تكون موجودة بدون علة ، فكيف يمكن أن تكون أزلية لا بداية لها ولا علة ؟ .

وعقيدة المسلم بالله تعود به إلى براهين وأدلة كثيرة أخرى ليس هنا موضع استعراضها ، وقد قلت لكم ، ان الوقفة هنا وقفة قصيرة .

والاحساس الفطري العميق الذي اضطره إلى الاعتراف بوجود الله . . . بوجود القوة المسيطرة العليا ، يضطره إلى الاعتراف كذلك بأن هذه القوة العليا عليمة ، حية ، قادرة ، كاملة ، بحيث لا حد ولا منتهى لعلمها ، ولا لحياتها ، ولا لقدرتها ، ولا لكمالها ، ولا لغناها ، وهو من أجل هذا الاعتراف ينزل بها الرجاء ، ويعقد عليها الأمل عند حلول أي حادث ، وعند نزول أي شدة ، من أي نوع ، وفي أي مكان وفي أي زمان .

وقانون السببيةالذيدلهعلى وجود الاله بوجودآثاره، يدله كلذلك على أن إله الكون حي قادر،لأنه مصدر الحياة والقدرة، وعليم حكيم ، لأنه مصدر العلم والحكمة ، وكامل غني لأنه مصدر الكمال والغنى . . . لأنه مصدر هذه الظواهر البادية في الكون .

تقديس المسلم لله :

وهكذا يوقن المسلم بوجود الله ، وبأنه حيّ عالم حكيم ، وبقدرته المطلقة ، وبكماله المطلق ، وبغناه المطلق ، ويوقن كذلك بوجوب تنزيهه وتقديسه عن أي نقص ، وعن أي حدّ ، وعن أي حاجة ، فأن كلّ أولئك ينافي معاني الكمال المطلق الأعلى الذي ثبت له بواضح البرهان .

وإلى هذا يعود معنى التقديس والتسبيح لله الذي اشتملت عليه عبادات المسلم وأذكاره ، فهو اعتراف لساني بما أيقن به قلبه وأقرّ به فكره وامتلأ به شعوره ، وهو تجديد للإيمان بهذه الحقيقة كلما مرت بالمسلم هذه الأقوال فقالها بلسانه ، وعنى مدلولها بقلبه ، وصدّق بها بفكره وشعوره .

صلة المسلم بالله :

وصلة المسلم بربه ـ في صورتها الأولى هي انشداد المعلول إلى علته وتعلقه الطبيعي بوجودها ، هي هذا الانشداد الذاتي الوثيق إلى علته ، فوجوده ظل من ظلالها ، واشراقة من نورها ، ونفحة من عطائها ،

ولا استقلال لوجود المعلول عنها ، وكيف يستقل ولا وجود له بدونها .

هذه صلة المسلم بربه في صورتها الأولى ، فإن المسلم يوقن أن وجوده هو ، ووجود جميع أشياء الكون كلها من آثار قدرة الله ومن نفحات رحمته ، فهو منشدّ إلى بارئه انشداداً وجودياً ذاتياً لا يمكن حله ما دامت له ذات ، وما دام له وجود ، وهذه الصلة قائمة على معنى الربوبية المطلقة من جهة وعلى معنى العبودية الخاضعة التابعة من جهة أخرى .

وهذه العبودية الخاشعة ، وهذا الخضوع الذاتي هما المعنى الذي تدين به طبيعة كل شيء يشتمل عليه هذا الوجود . . . هما العبادة الطبيعية لله التي يدأب فيها كل كائن ، ولا يملك أن يشذ عنها أي موجود ، وهما الإسلام الذي قررته الآية الكريمة الآنف ذكرها : « . . . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً . . . » والإسلام في مجاله اللغوي هو الانقياد والخضوع .

والآية الكريمة تقرر أن هذا الإسلام . . . ان هذا الخضوع الذاتي الذي يدين به كل ما في السماوات وما في الأرض هو المأخذ الأول لفكرة الدين ، وقد تحدثنا عن

بعض هذه النواحي في ما سبق .

ويوقن الإنسان ـ وهو العاقل المفكر ـ بأن كل ما في يديه من خير ، وما في صنعه من إبداع وما به من جمال ، وما في نفسه من مواهب سامية ومقدرة فائقة ، وما يؤمله أو يحققه لذاته من سعادة أو كمال ، يوقن الإنسان بأن كل ذلك إنما هي أياد لله الذي تفضّل عليه بنعمة الوجود ، ونعمة العقل ، ونعمة القدرة ، وبالنعم الكثيرة الكثيرة التي لا يحصيها عداً ، ثم لا يبلغها شكراً .

يوقن الإنسان بكل هذا فتتركز صلته بالله ربه على الحب العميق ، والتعلق الذاتي .

تتركز على الحب الذاتي ، وجوهرة اشراق العلة على المعلول ، وانقياد المعلول للعلة .

وعلى التعلق العميق وسر ولوع الفقير المعدم بالغني المتفضل .

ولوع الفقير الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا يستطيع أن يدفع عنها ضراً ، بالغني الذي لا حدّ لغناه ، المتفضل الذي لا منتهى لتفضله .

على هذه الركيزة من الحب العميق ، المتصل بأعماق الفطرة ، وبينابيع الطبيعة ، وبروافد الحاجة ،

والممتزج بشعور الأكبار والتعظيم ، وبأحساس الرهبة والخشية ، وبالشعور برقابه الله العظيمة ، التي لا يفلت منها قول ولا عمل ، ولا سرّ ولا جهر .

على هذه الركيزة التي يحوطها كل مشاعر التقديس والاجلال تقوم صلة المسلم بالله ربه ، وتمتلىء نفسه بهذا اليقين ، وتتجه مشاعره واحساساته وأعماله وحركاته وسره وعلانيته نحو هذا الشعور الواحد ، ما دام يعلم أنه الينبوع الفريد الذي يستدرّ منه الخير ، ويستنزل منه البركة ، ويستدفع به السوء والمخاوف .

تلك هي عقيدة المسلم بالله ـ أيها الاخوة ـ وهذه هي صلته العميقة الوثيقة به ، ألم أقل لكم : إن عقيدة المسلم بالله هي المرسى الأعظم الذي ترسو عليه كل تعاليم الإسلام وترتكز عليه كل مفاهيمه . وإن صلة المسلم بالله هي المصدر الأساس الذي تستمد منه كل صلات المسلم وعلاقاته ، وتلتقي عنده كل مناسكه وعباداته .

القربات تعبير عن الخضوع الذاتي لله :

نعم ، هما المرسى الأعظم والمصدر الاساس لكل أولئك ، فالصلاة والصوم والخشوع والدعاء وسائر قربات

هذه الشريعة إنما هي تعابير متنوعة عن ذلك الخضوع الذاتي المكين ، يواكب المسلم فيها كـل أشياء هـذا الكون ، وكل موجوداته السائرة إلى الله والمسلمة وجوهها إليه ، وتراتيل روحية يعبر المسلم بها عن ذلك الحب العميق الذي وصله بربه وشده إليه .

عن ذلك الشعور الفريد الذي اتجهت إليه كل مشاعره وأحساساته ، وكل أعماله وحركاته .

ويوقن المسلم ـ وهو يؤدي هذه الفروض ـ : إن الله في غنى عن أي طاعة ، وعن أي تقديس ، ولكنها أوامر من الله يجب أن تمتثل ، وصلة به يجب أن تتعهد ومنهج إلى الكمال الأعلى يجب أن يسلك .

وقد أوضحت لنا البحوث المتقدمة : أن الدين خضوع عملي اختياري لله . . . لإله الكون . . . للعلة الكبرى التي أفاضت الوجود ، ودبرت كل موجود ، أداءً لحقها من ناحية وطلباً للكمال بهذه الطاعة من ناحية أخرى .

فقد علم الإنسان ـ من نظرته في الأشياء ـ أن تكامل الموجودات كلها إنما هو أثر خضوعها لهذه العلة التي كوّنتها ، واتّباع القوانين التي وضعتها ، وهذا هو النهج الذي يسير عليه كل موجود إلى غايته ، والدين أحد

هذه القوانين الثابتة التي وضعها رب الكون لتدبير الكون .

والصلاة والصوم وسائر العبادات في دين الإسلام وسائل قوية الأثر في تربية روح المسلم ، وتقويم غرائزه وإرادته ، وتهذيب خلقه وتزكية ضميره .

وسائل قوية الأثر في ذلك ، لأنها تشد المسلم بالله . . . بالله الواسع الرحمة ، الشديد البطش الحسيب على العمل ، العليم بذات الصدور .

تشد المسلم بالله شداً وثيقاً ، وتحضره رهبته وخشيته واجلاله واكباره ، وتشعره رقابته الدائمة التي لا تخفى عليها خافية ، ولا سر ولا علانية .

ولذلك فالمسلم الحق لا يتجاوز حداً ، ولا يظلم حقاً ، ولا يقصر عن غاية ، وأقرأوا معي - ان شئتم - هذه الآية الكريمة ، « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون »[1] . وهذا الحديث الشريف : (إذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم ، وغضوا أبصاركم ، ولا تنازعوا ، ولا تحاسدوا . . .) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

أما تفصيل هذا المجمل فأنه يستدعي وضع كتاب .

الحب الالهي وصلات المسلم :

وذلك الحب الالهي العميق حين تمتلىء به نفس المسلم وأفاقه ، ويفعم به قلبه ، وتنطبع به أرادته ومشاعره ، تنبسط أشعته على كل صلة للمسلم في هذا الكون ، وأي شيء في الكون لا يتصل معه بهذا النسب . ؟ ، ولذلك فالبشر جميعاً أخوانه في هذه القربى قبل أن يكونوا أخوانه في البشرية ، وهم جميعاً شركاؤه في هذا النبع قبل أن يكونوا شركاءه في أي جهة أخرى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . » [١] .

« إنا خلقناكم » . هذه هي حقيقة السر ، وهذا هو موضع الاتصال بالأخوة العامة ، أما انتهاء نسبهم جميعاً إلى ذكر واحد وأنثى واحدة فإنه يأتي في الدرجة الثانية .

نعم ، البشر كافة إخوة في دين الإسلام . . . بهذه الأخوّة العامة المقدّسة ، ولذلك فهم واجبوا الحب ،

---

(١) الحجرات : ١٣ .

واجبوا النصيحة ، واجبوا العون .

نعم ، هم جميعاً أخوة واجبوا الحب بهذا اللون الناصع من الأخوّة والحب ، الثابت الذي لا يتغير ، القوي الذي لا يضعف ، الرفيع الذي لا يتضع ؛ وهم واجبوا النصيحة واجبوا العون . . . والأخ الحبيب لا بدّ وأن ينصح وأن يعان ، ولكنهما نصيحة وعون في حدود العدل الذي فرض له هذا الحق ، وأوجب له هذا الحب ، وشرّفه بهذه الأخوّة . وهذه هي الركيزةالكبرى للسلام العالمي في الإسلام .

أما المسلمون في ما بينهم فقد أضاف لهم اجتماعهم في الدين نسباً جديداً يؤكد القربى ، وشريعة عادلة توازن الحقوق ، وصلة روحية تضاعف الحب (إنما المؤمنون أخوة) .

حب في الله :

وميزة الحب المسلم وخاصته التي تصونه عن تردّي العاطفة ، وعن هبوط الغاية وعن تناهي الحدود (انه حب في الله) .

هذه بداءة الحب المسلم وهذه غايته ، من حب الله يبتدىء ، وعنه يشتق ، وفي ظلاله يعمر ، وإليه آخر

الأمر ينتهي ، وجلي - منتهى الجلاء - أن هذا الحب لا تؤمل فيه سقطة ولا يرجى له زوال ، وجلي كذلك أن هذا الحب أقوى ما تشد به أواصر البشر ، وأوثق ما تصان به حقوقهم .

البشر في دين الإسلام كلهم أخوة ، وهم واجبوا الحب ، واجبوا النصيحة ، واجبوا العون ، وبعض الأخوان قد يجهل صلته بأخيه فينكرها أو يتنكر لها ، وقد يظهر منه ما يكدر صفاء الأخوّة ، وقد يبدو منه ما يعّكر نقاء الحب ، ولكن هذا لا يعني أن ذلك الجاهل ليس أخاً ، أو ليس واجب الحب والنصيحة والعون ، في المجالات الممكنة لذلك . ان جهل الأخ أو شذوذه لا يقطع صلته ، ولا يسقط تبعات هذه الأخوّة إذا أمكنت المحافظة عليها ، وهذا هو التفسير الحرفي الواضح لقول الرسول (ص) عن مشركي قريش وهم يأخذونه بالحجارة من كل جانب ويؤمونه بالأذى من كل صوب : (اللهم أغفر لقومي فأنهم لا يعلمون) .

نعم ، وحتى إذا بدا من الأخ ما يستوجب به البغض ، فإن هذه البغضاء لا تكون له في الواقع وإنما تكون للأعمال والصفات الشاذة التي بدت منه أو ظهرت عليه ، وأن عسر هذا الفصل في كثير من الأحيان وفي كثير

من الناس .

بل ، وحتى إذا بدا من ذلك الأخ ما يستوجب به تأديباً أو أي إجراء عملي آخر في دين الإسلام فإن هذه ضرورات يلزم بها نشر الحق ، أو اقامة العدل ، ولا تعني أن هذا الذي تجري عليه مبتوت الصلة مفسوخ القربى ، واقرأوا معي هاتين الأيتين الكريمتين مثالاً لذلك : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا أن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون »[1] .

على أن الإسلام لا يجحد الأمر الواقع ، ولا يبالغ في تقرير حقائقه أكثر مما تستوجب فبعض الناس تكاد نفوسهم وطباعهم تكون مجبولة على الالتواء ، مطبوعة على نكران الحق والتمرد عليه ، وبغض هذا الفريق من الناس لا يمكن أن يفسّر ببغض أعماله وشذوذه ، والنشاز في هذا الفريق من الناس ليس صفة لأعماله وأخلاقه وحدها ، وكما كان ذلك البشر السوي واجب الحب في الله ، فأن هذا البشر الملتوي يكون واجب البغض في

---

(١) الحجرات : ٩ ـ ١٠ .

الله ، وهذه هي الفوارق والموائز التي يجب أن تقوم عليها الصلات في الإسلام .

أما الأمور التي يجري عليها الإنسان العادي في حياته ، ويجعلها مقياساً لحبه وبغضه ، ولوصله وقطعه ، أما هذه فيجب أن تجدد النظرة فيها على أساس من مقاييس الإسلام فيحق منها ما كان حقاً ، ويبطل ما كان باطلاً .

حقائق الدين موحدة :

وخاصة من الخواص التي ينفرد بها الإسلام ويتميز بها عن غيره من النظم والأديان ، لا بد من ذكرها هنا لصلتها القويةبالموضوع، ولا بد من البرهنة عليها .

وهذه الخاصة هي أن حقائق هذا الدين ، تعاليمه ، وشرائعه ، ووصاياه ، موحدة مترابطة متداخلة في مبادئها وغاياتها ، والذي يحاول أن يتناولها مِزَقاً متفرقة يضيع الحقيقة ، ويبعد عن الغاية .

وهذه الحقيقة ثابتة يعرفها الدارسون الواعون لمناهج الإسلام ونظراته فيها ، ومن أجل هذا التوحد والترابط بين مناهج الإسلام واحكامه أضاع كثير من الباحثين غير المسلمين وجه الصواب لما أرادوا أن يبحثوا

عن تعاليم هذا الدين متفرقة متفككة ، لا رباط بينها ولا صلة .

ومن أجل هذا التوّحد والترابط بين مناهج الإسلام وأحكامه أضاع كثير من المسلمين وجه الحقيقة وبعدوا عن الغاية لما حاولوا أن يقسّموا دين الله وفق الأهواء فالتزموا ببعض احكامه وتركوا بعضاً .

وأظن أن في الحديث السابق دلالة وافية على هذا التوحد والترابط « فقد علمنا كيف تتركز صلة الإنسان بربه على الحب ، ثم كيف تمتد أشعتها إلى جميع صلات الإنسان فتوحدها ، وإلى جميع حقوقه وواجباته فتؤكدها ، وعلمنا أيضاً كيف ترتبط العبادة في دين الإسلام بالعقيدة ثم كيف ترتبط سائر تعاليمه بالعبادة .

وموضوع حديثنا ـ بذاته ـ مظهر من مظاهر الوحدة في تعاليم الإسلام ، فهل تسمحون لي أن أشير إلى ذلك إشارة موضحة ؟ . هل تسمحون لي أن أعود مرة أخرى فأقف على هذا الحب الالهي العميق ثم اتتبع أثاره في رسوم الإسلام وتخومه ، لأدلّ على صدق هذه الدعوى ؟ .

لتكن حقيقة الحب أي شيء تكون ، وليختلف في تفسيرها وفي تحديدها من شاء أن يختلف ، فأن الحب

حين يكون له هذا العمق لارتباطه بجذور الفطرة ، وهذا الشمول لاتصاله بنظم الطبيعة ، وهذا الخلود لاستقائه من نبع التكوين ، ثم حين يكتسب هذه القوة إذ يمده تسلسل الحاجة من جهة واتصال الرفد والعون والغوث من جهة أخرى ، وهذه القداسة إذ يرتكز عليه الدين ، وحين يمازجه شعور الاجلال فلا تجمع بالمحب دّالـة الحب ، وشعور الرهبة والخوف فلا يجرؤ على مخالفة الحبيب .

أقول : ان الحب الالهي حين يتخذ هذه الصبغة يكون عظيم الفعل بالغ الأثر في تصرف المرء وسلوكه .

ومن طبيعة الحب العميق الخالص أن المحب يغرم بكل ما هو أثير لدى الحبيب ، وهذه قاعدة لا يرتاب فيها من عرف هذا الشعور وعرف أعراضه وسبر شيئاً من تاريخه .

وعلى هذه القاعدة الوجدانية درج القرآن في عرض محبوبات الله ومحظوراته في كثير من آياته الكريمة .

عرض مجمل :

(وان كنتم تحبون الله فأتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) [1] .

يدعى هذا الإنسان أنه يحب الله ويعتز به ، ويفخر بحبه ، وهذه دعوى لها مثبتاتها ، وإذا كانت هذه الدعوى منه حقاً ، فأن عليه أن يقيم على صدقهـا بينة من أعماله ، عليه أن يستمسك بكل فعل أو صفة يحبها الله . وأن يحذر كل خلق أو سلوك يبغضه الله ، أليست هذه هي الخاصّة البينة للحب الصادق ؟ . ثم أليست محبوبات الله هي ما أمرت به شريعته ، مبغوضاته هي ما نهت عنه ؟ .

بهذا العرض المجمل المستوعب يشد الله جميع أحكامه وجميع مفروضاته وممنوعاته بوثاق الحب الذي يرتبط به الإنسان .

تفصيل لهذا الاجمال :

وحين يعرض لتفاصيل الاحكام فأنه يجري مع هذه القاعدة في سنن مطرد ، وبأسلوب متشابه .

---

(١) آل عمران : ٣١ .

فالصدق في الإيمان بالله مهما تقلبت الظروف ، والوفاء بتبعات هذا الإيمان مهما جدت الأمور ، وغلت الأثمان ، والالتزام بتقوى الله وبالعمل الصالح في جميع الحالات كل أولاء أجراب من الإحسان .

والأنفاق في سبيل الله في حالتي اليسر والعسر . وكظم الغيظ لدى الخوف والأمن والعفو عن المعتدي مع القدرة والعجز كل هذه وأولئك أبواب من الإحسان والله يحب المحسنين .

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين »[1] .

« وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »[2] .

---

(١) المائدة : ٩٣ .

(٢) آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨ .

« الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » [1] .

والعدل في الحكومة بين الناس ، والنصف في المعاملة وفي الأخذ والعطاء ، والاتزان في السلوك وأقامة الصلات على العدل والانصاف وحسن المعـاملة مع الأقربين والأبعدين كل أولئك أقساط ، « ان الله يحب المقسطين » .

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين » [2] .

« . . . فـأن فاءت فـأصلحوا بينهما بـالعـدل وأقسطوا . ان الله يحب المقسطين » [3] .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » [4] .

---

(١) آل عمران : ١٣٤ .

(٢) المائدة : ٤٢ .

(٣) الحجرات : ٩ .

(٤) الممتحنة : ٨ .

والرهبة الواعية الشديدة من الله في كل حال وفي كل عمل ، واستشعار رقابته على كل حركة وسكون ، والوفاء لله وللناس بالعهود ، والاستقامة له ولهم على الشروط ، كل هذه مظاهر لتقوى الله (وان الله يحب المتقين) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً . . . »[1] .

« واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم »[2] .

« واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[3] .

« بلى من أوفى بعهده واتقى ، فأن الله يحب المتقين »[4] .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) البقرة : ٢٣١ .

(٣) البقرة : ٢٨١ .

(٤) آل عمران : ٧٦ .

« . . . فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ان الله يحب المتقين » [1] .

« فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين » [2] .

وهكذا يمضي القرآن قدماً في مد هذا الحبل وتتبّع هذه المواد فان الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الصابرين ، ويحب المتوكلين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . . . و . . .

ومساوىء الاخلاق وقبائح الأعمال كلها أمور يبغضها الله ويشنأها فأن الله لايحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، والله لا يحب الفساد ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب الظالمين ، ولا يحب المسرفين ، ولا يحب الخائنين ، ولا يحب المعتدين ، ولا يحب الكافرين ، ولا يحب المستكبرين ، ويمحق الله الربا ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار اثيم ، وان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ، ولا يحب من كان مختالاً فخوراً ، وفي سورة الاسراء يعرض عدداً من هذه الرذائل

---

(١) التوبة : ٤ .

(٢) التوبة : ٧ .

ثم يقول : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها »[1] .

وهكذا يتصل الحبل ويمتد حتى ينتظم كل أمر من أوامر الله وكل نهي من نواهيه ، وحتى لا تبقى ظاهرة من ظواهر الشريعة ولا خفية من خفاياها الأسرت إليها خفقة الحب الالهي ، وشملتها رابطته الوثقي .

وختاماً أقدم إليكم معذرتي ـ أيها الأخوة ـ فلعلي أطلت باستعراض بعض النواحي ، ولكنه استعراض تتوقف عليه توفية البحث ، ولعلي أوجزت في بعضها الآخر وعذري ان موقفي يقتضي الايجاز .

(١) الاسراء : ٣٨ .

الفهرست

القسم الأول

القسم الثاني